في ظل الشجرة

الكتاب: في ظل

المؤلف: عبير سعد

فريق عمل شبيه الروح

تدقيق لغوي: فريق شبيه الروح للتدقيق اللغوي

تنسيق داخلي: شيماء نصر

تصميم الغلاف: صابرين محمد

إشراف عام: أحمد شقليط

رقم الإيداع:٢٠٢٣/٢٦٦١

الترقيم الدولي:٣-٣٩٤-٨٤٤-٩٧٧-٩٧٨

دار الزيات للنشر والتوزيع

مجلس الإدارة/د.شاهندة الزيات

المدير العام/أ.محمود محروس

المدير التنفيذي/أحلام محسن

shahnda71@gmail.com

01066736765

01011122429

01015766014

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة© لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/٤٩٣٥١

في ظل الشجرة

«قبسٌ من أوراق خريفنا المتناثرة»

عبير سعد

دار الزيات للنشر والتوزيع

مقدمة

فـي أحلـك أوقاتنـا، يرزقنـا اللّه بعطايـا علـى هيئـة بشـرية، تضـيء الـدرب، وتربـت علـى أوجاعنـا، فتشـفيها..

إليكم .. يا من بُعثتم للقلوبِ حياة في زمن الشتات.

عبير سعد

أي تشابه في أحداث القصص الموجودة بين دفتي هذا الكتاب، ليس محض صدفة، وليس من بنات خيالي، إنما هي نسخ مكررة من كتاب الشقاء المُنزل على قلوب البشر أجمعين.

«الألم الأول»

«انتظار»

وقفت أمام مرآتها كبدر هبط من السماء لتزدان الدنيا ببهائه، بيدها قلم أشد سواداً منَ الليل البَهيم، تخط به حدود عيون المها الآسرة التي تملكها، فتشع بلون حقول الربيع اليانعة. وضعت قلم كحلها من يدها لتمسك بحمرة الشفاه الكرزية، تمررها بإتقان على شفتيها المكتنزتين، لتلقي ببعض ظلالها على خدود كالأطفال في رقتها ونعومتها، تتأمل انعكاس صورتها في المرآة، فترى فتنة متجسدة، ربة إغريقية للإغواء، نظرت لساعة يدها، وضعت شالاً من حرير على شعرها الغجري بلون الكستناء، ثم أسرعت متجهة لمحطة القطار، يحملها الشوق على جناحيه، ترقص روحها طرباً على أنغام نبضات قلبها المتسارعة..

وصلت لساحة الانتظار، واختارت مقعداً بعيداً عن الزحام، تستطيع منه رؤية الصاعد للقطار والمترجل منه، تطل من عينيها نظرات شوق وحنين، تتلاعب أصابعها بخاتم خطبتها الذهبي، تتأمله فيثير في نفسها أسمى معاني العشق، ولِمَ لا ومن ألبسها إياه هو حبيب العمر كله، من تفتحت زهرات عمرها بين يديه، فكان الصديق والأخ والحبيب، وسيصبح الزوج العاشق عما قريب، لقد وعدها أن يتم إجراءات الزواج بعد أيام قليلة من إنهاء خدمته العسكرية، وها هي تنتظر حضوره اليوم كما أخبرها؛ لتكون أول من تقع عليه عيناه، وتطفئ نار شوقها لرؤياه الغالية.

زادت دقات قلبها مع صوت صافرة القطار القادم من بعيد، وقفت متحفزة، تتعلق عيونها بأبوابه التي فُتحت ليسرع الجميع إلى الرصيف، كلٌّ يبحث عن ضالته، فتشاركهم البحث

وسـط الزحـام الخانـق، تسـرع خطاهـا متنقلـة مـن بـاب لآخـر علهـا تجـده، دون جـدوى، تتزايـد الضوضـاء مـن حولهـا، بعـض الأصـوات والهمهمـات المتعاليـة تـؤرق صفـاء روحهـا، تحـس بنبضـات قلبهـا تتعالـى، صـوت أحدهـم يناديهـا فـلا تبالـي بـه، ينـادي الآخـرون، هـا هـي هنـاك، أصواتهـم تقتـرب، تهـرب منهـم وكأنهـم شـياطين خرجـت للتـو مـن الجحيـم، تواصـل عدوهـا بيـن أبـواب القطـار لاهثـة، تتلقفهـا ذراعـان ملهوفتـان، تحـاول التملـص منهمـا والفـرار باحثـةً عـن أحضـان حبيبهـا، كلمـات غريبـة تتـردد مـن حولهـا..

- حسرة قلبي عليكِ يا ابنتي..

تنظر لهذه المرأة الباكية المنتحبة، تشاركها دموعها..

- ما بالك يا أمي، لم تبكين؟!

فلتساعديني فـي البحـث عـن مـراد، لقـد أخبرنـي أنـه قـادم اليـوم لنتـزوج، لتكتمـل فرحتـك بنـا وتلبسـيني فسـتان زفافـي بيديـك كمـا تمنيـتِ دومـاً.

يزداد النحيب من حولها..

- تتسـاقط دموعهـا حِممـاً، حاملـةً معهـا الكحـل السـاكن عينيهـا فيرسـم علـى وجههـا خارطـة، معالمهـا الألـم والفقـد..

- فلنعد حبيبتي لدارنا، هيا كفاك قتلاً لروحك.

- من جاء بسيرة القتل، من قال قتلاً؟!

تنتحـب ويعلـو صـوت صراخهـا.. تتهـاوى علـى رصيـف العـذاب منهـارة، كمـا انهـارت أحلامهـا فـي مثـل هـذا اليـوم منـذ ثـلاث سـنوات كاملـة .. ككل مـرة فـي نفـس موعـد عودتـه، ذكريـات كالرصـاص

تخترق عقلها، تعيد شريطاً من الألم تتجرعه روحها، مع تعالي صوت رنين الهاتف ببيت والدها، يتلوه صراخ وعويل، مع وصول الخبر المشؤوم الذي غير أقدارها، لقد استشهد حبيبها بيد الخائنين، روت دماؤه الطاهرة أرض الوطن، ليخلد في جنات النعيم، وتخلد هي في جحيم عشقه وذكراه، حتى تلقاه.

«الألم الثاني»

«رُزقت حياة»

قاسية هي الحياة حين تأسر روحكَ بين جدران معتمة، ملؤها الغموض والشقاء، وتلفظكَ إلى الطرقاتِ جسداً خاوياً، لا يقدر على شيء.

يقفُ أمام قبرها، متسربلاً بذكرياته؛ لتقيه برودة الفقد، تسقي دموعه جنة من الأزهار نَمَت ببابها، وكأنها تنشرُ عبير من تسكنُ بجانبها، يبثها أشواقه وحزنه المتنامي كل يومٍ منذُ رحيلها، حتى صارَ كجبلٍ عظيم يجثمُ على قلبه.

سنوات مرت كالخيال، منذ رآها لأول مرة، وشغُفَت روحه بها، وكان فضل الله عليه عظيماً أن رزقه إياها زوجةً وسكناً وسكينة ينعم بها، لم يرَ منها سوءاً قط، فكانت كشجرة وارفة الظلال في صحراء حياته القاسية، حتى في أحلكِ الأوقات كانت له نِعمَ العون، لم تُحمله يوماً ما لا يطيق، وبجانبها بدأت خطواته الدؤوب لتحقيق أحلامه.

حين ظن أن الحياة أشفقت على قلبه، وجاء نصيبه من الجبر، عندما حباه الله بالخيرِ الوفير كي يعوضها ما قاست لأجله، كانت الفاجعة التي نزلت به وبأولاده، وزلزلت نفوسهم فقداً وقهراً وضياعاً، ففي لحظات مروعة فقَد أمانه وسكنه حين فقدها، ولولا الرضا بما قسم الله، لطارَ عقله كما جنُ قلبه لفراقها.

كلما ضاقت به الدنيا يسرعُ إليها، يتكئ على باب قبرها، يدقه بيديه كطفلٍ صغيرٍ يطلب من أمه أن تسمح له بالدخول،

أو أن تخرج إليه لتضمه لصدرها فتحتوي ضياعه وغُربته، يبثها شكواه كما كان يفعل دوماً، يجالسها، يحسُّ بروحها تطوف من حوله، يشاركها تفاصيل يومه ومخاوف غَده، يذرف وجعه كلمات يلقيها يائساً علها تصلها، يحمل له الهواء صوت ضحكاتها، ونبرتها العذبة وهي تناديه (حبيبي أنا دائماً بجوار قلبك، فلا تحزن)..

يناجيها (حبيبتي، تمر الأيام دونك وكأنها مأساة لا تنتهي، نتجرع مرارة الفقد شيئاً فشيئاً، أولادنا يفتقدون وجودك الحنون إلى جانبهم، أشعر وكأنهم يتيهون في دوامة من الألم لا يقدرون على الفكاك من براثنها، لقد تركَ غيابكِ فجوةً لا يعوضها أحد من العالمين، حتى أنا.. فشلت أن أعوضهم غيابكِ، فمكان الأمِ لا يملؤه سواها..

أشعرُ بهم وأدركُ ما يعانونَ ليل نهار، فقد ذُقتُ مرارة اليتمِ للمرة الثانية برحيلكِ بعد أمي، فما بقي لي بعدكِ من أحد، أرى طيفك ينعكس داخل عيونهم، يحولُ بينهم وبين الحياة، وكأن شمسها قد غربت مع رحيلكِ ولم تشرق بعد..

أحس يدكِ الحنون تحتويني، وتمسدُ شعيرات غزاها الشيب مُذ رحيلكِ، فالساعات في زمن الفراق دهورٌ متثاقلة الخطى، تخطو على قلوبنا بلا رحمة..

تخيلي أن الجميع يريدون أن أتخذَ زوجةً أخرى من بَعدك، يعتقدون أن هناك من ستعوضُ أبناءنا غيابكِ، ويَدَّعون أني أظلمهم، وأني غير قادر على الاعتناء بهم وحدي، لا أتخيلُ يوماً أفتح فيه عيوني لأرى سواكِ يسكنُ مملكتك، لكني مكبلٌ

بالضعفِ والعجز، كلما رأيت انطفاء أولادنا يزداد يوماً بعد يوم..

إخوتي يريدون أن أتزوج من صديقتك المقربة حياة، فهي في نظرهم البديل الأمثل المناسب لحياتنا، مطلقة، لا أولاد لها، ستعتني بأطفالنا جيداً، خاصةً وهي أكثر من يهتم بهم منذ غيابك، يحبونها كثيراً، ويفرحون لوجودها وزيارتها..

أحسُ بذنب شديد لمجرد التفكير في الأمر، يقابلون رفضي بالتعجب، فهم لا يدركون أني فقدت روحي برحيلك، حتى أولادنا يتعجبون من تبدل حالي، وكيف أصبحتُ هذا الشبح الهائم في ملكوت آخر، وكأن روحي أبت أن تفارقك، فرحلت معكِ لمثواك الأخير، وتركتني ها هنا أتجرع الفقد وحدي.

اجتمع الجميع على الموافقة عليها زوجة لي. عداي، حتى أولادنا قد فرحوا بهذا الخبر حباً فيها، كأنها جزء منكِ قد عاد إليهم كطوق للنجاة من ضياع يرعبهم، أقنعوها بالقبول بجهد بسيط، واليوم هو الموعد المحدد لهذا الزواج، لكني أجد نفسي أهرب من الجميع لجوارِكِ أنتِ، فلتعلمي أن قلبي يسكنُ هذا القبر معك، ولن يملكه أحد سواكِ يوماً).

تمت الزيجة سريعاً، بمباركة الأهل والأصدقاء والأبناء أيضاً، وبدأت حياة جديدة تنتظمُ في أركانِ هذا المنزل، لن تكون أبداً بروعة ما قد مضى، لكنها أفضل من الضياعِ والتشتت الذي عانوه بعدما كتب على جباههم من رحيلٍ موجع.

أراها تسعى جاهدةً لإرضائي، والاعتناء بأولادنا جيداً، تحاول قدرَ استطاعتها أن تعوضهم غيابكِ، لكنك دائماً ما تقفين حائلاً بيننا، أحاول أن أتق الله فيها قدر استطاعتي،

لكـن، يخونـنـي قلبـي فـلا يـرى سـواكِ خليلـة ورفيقـة وحبيبـة.

فرحـتُ بعـودة حياتنـا إلـى نمطهـا الطبيعـي، وعـودة الأولاد لدراسـتهم وتفوقهـم مـرةً أخـرى، أراهـا تضـع لمساتها علـى كل شـيء مـن حولـي، تحاصرنـي بتفانيهـا، إنهـا تحـاول جاهـدةً أن تعـوض غيابـك، وكأن نبعـاً مـن حنـان تفجـر داخلهـا، تـروي بـه ظمـأ قلوبنـا، فتبثنـا كل حنانهـا واهتمامهـا، فاسـتقامت الحيـاة، أو هكـذا ظننـت.

عـدتُ يومـاً مـن عملـي لأجـدَ حالـةَ مـن السـرورِ تعـم ربـوعَ المنزل، زوجتـي، إخوتهـا، وأولادي، يسـرعُ الجميـع لملاقاتـي علـى الأعتـاب يزفـون لـي البشـرى، لقـد مـنَّ اللّه علينـا بطفـلٍ تحملـهُ حيـاة كمعجزةٍ ومكافـأة علـى صبـرٍ طـالَ، وجهـدٍ بُـذلَ، ودعـاءٍ لـم ينقطـع، لـم يخطـر ببالـي يومـاً أن أنثـرَ بـذوري بغيـرِ أرضـك، فتنمـو لتصبـح مـلاكاً، ربمـا حمـل إلينـا بشـارات الخيـر، ففرحـتُ لفرحتهـم، ودعـوت اللّه أن يتـم نعمتـه علينـا، وليجعـلَ هـذا الصغيـر هـو الفرحـة التـي تشـرقُ مجـدداً علـى حياتنـا البـاردة فتبـث الـدفء بيـن ربـوع قلوبنـا المتعبـة.

تمـر الأيـام سـريعاً، وألاحـظ الكثيـر مـن التبـدل فـي حـال زوجتـي الحنـون، وكمـا الممسـوس بـروح شـيطانية، تبـدل حالهـا، أصيبـت بحـالات مسـتمرة مـن الهلـع، صَـارَ هاجسـها الأكبـر أن تفقـدَ حملهـا، وعندمـا نصحتهـا بالهـدوء لأجـل صحتهـا، اتهمتنـي بأنـي لا أهتـم لهـا، ولا لجنينهـا الـذي هـو قطعـة منـي، آلمنـي اعتقادهـا أن وجـوده أو عدمـه لا يهمنـي، بحجـة أن اللّه رزقنـي غيـره مـن الأولاد أمـا هـي فـلا، وأصـدرت الحكـم علـى قلبـي بكونـي مذنبـاً بكبيـرة لـم يقترفهـا أبـداً.

خيـم التوتـر والحـزن كغيـوم سـوداء منـذرة، لا تعلـم، أبداخلهـا الغيـث يسـقينا، أم عـارض ممطـرا يحمـل بيـن طياتـه العـذاب المبين؟

اضطررت مرة أخرى لجلب خادمةٍ لتعتني بها وبالأولاد، حتى يستقر حالها، لكنها لم تتحسن، بل ازدادت ثوراتها كثيراً، فأصبحت لا تطيق أولادنا، بل لقد أصبحت تلمحُ أنهم أصبحوا عبئاً عليها، فهي تريدُ التفرغ لطفلها والاهتمام به وحده، فكم اشتاقت له بعد سنواتٍ من الحرمان، وكأن مشاركة غيره لحنانها معصية وخيانة لا تغتفر.

سمعتها يوماً عند عودتي إلى المنزل، تتحدثُ مع ابننا الأصغر.. يناديها أمي إني اشتقت إليكِ، فاغفري لي لو أغضبتك يوماً، لن أبعثر ألعابي من حولك مرة أخرى.

لم يدركَ يوماً أنها ليست بأُمه، فقد كان رحيلكُ أبكر من إدراكه، يناديها أمي، وكانت تسعدُ بكلمته هذه، وتطرب لسماعها منه، أما الآن فقد صعقني ردها.. فقد صاحت به: أنا لستُ بأمك، فلا تناديني بهذا.

سالت دموعي إشفاقاً عليه، وهرعتُ إليه أضمهُ إلى قلبي علني أمتص غربته ويتمه داخلي، فلا يحسُ مرارتهما يوماً.

أصابني الحزنَ لحالها، وحال أولادي الذين لم يَخف عنهم تبدلها، وسادَ الحزن بيتي مرةً أخرى، وكأنما كُتِبَ علينا الفقد مرات عديدة ولأسبابٍ مختلفة، ودعوت الله أن يَهدِي قلبها وتدركَ فداحة ما تفعل.

وتمر أيام وشهور ويحين موعد قدوم الزائر الجديد، وسط مشاعر متضاربة من السعادة والترقب والخوف والشوق والرجاء، وبعد ساعة أو يزيد قليلاً، حُملت إلينا البشرى بقدومِ طفلي

الصغيـر بخيـر حـالٍ، ووالدتـه أيضـاً، ودعـوت الله أن يحمـلَ معـه بعضـاً مـن الأمـل والسـعادة، فخـاب رجائـي مـرةً أخـرى.

هجـرت زوجتـي الحيـاة إلا وليدهـا، حتـى أنـا لـم أعـد أشـغل حيـزاً مـن تفكيرهـا، فهـا هـو أملهـا قـد تحقـق وكل مـا دونـهُ هبـاء، فعـدتُ ثانيـةً لأنـزوي مـع أطفالـي اليتامـى؛ محـاولاً تعويضهـم ومسـاعدتهم لعبـور هـذه الأزمـة.

بـاءت كل محاولاتـي للتفاهـم معهـا بالفشـل الذريـع، فكأنمـا تحـول هـذا النابـضُ بصدرهـا لحجـر لا يليـن، فـلا تسـمع كلماتـي ولا تـرى الدمـوع التـي تغشـى عيـون الصغار ألمـاً.

أفيـق مـن نومـي علـى صرخـات تـدوي فـي سـكون الليـل، أهـرع لغرفـة زوجتـي، فأجدهـا تحمـل طفلـي بيـن يديهـا وصرخاتهـا تتوالى، لقـد مـات وليـدي، توقـف عـن التنفـس، لـون جسـده يتحـول لـلأزرق الداكـن مـع بـرودة تغـزو أطرافـه الرقيقـة، أحـاول حملـه عنهـا لإنقـاذه، لكنهـا تتشـبث بـه، وكأنمـا بـات امتـداداً لجسـدها، ببعـده تنسـلخُ روحهـا منهـا.

وبعـد عنـاء اسـتطعت حملـه وأسـرعت بـه لأقـرب مشـفى، ومـن لطـفِ الله بنـا أن قـدرَ لـه النجـاة، وعلـى الرغـم مـن كونـه كفـرخ عصفـور صغيـر، فقـد تـم توصيلـه بأجهـزة للإنعـاش، فقـد أظهـرت فحوصاتـه أنـه يعانـي مـن مشـكلات معقـدة فـي القلـب، ولابـد أن يخضـع بسـببها لجراحـة عاجلـة، لا يعلـم نتيجتهـا إلا الله وحـده. يـا لمـرارة الفقـد التـي تطـارد روحـي فتهلكهـا.. يـا الله فلتنعـم علـى قلوبنـا بلطفـك!!

ومـن خلـف زجـاج غرفـة العنايـة الفائقـة، وقفـت أنـا وزوجتـي وأولادي، وعيوننـا تغشـاها الدمـوع علـى هـذا المـلاك النائـم،

ومــع كل صــوت يصــدر عــن الأجهــزة تضطــربُ نبضــات قلوبنــا وتتهــاوى، وكل مــا يجــول بخاطرنــا أن ندعــو اللّه لــه بالنجــاة.

كلمــات تتســلل لمســامعي تنطقهــا زوجتــي، تحمــل نــدم الكــون، أن "يــا اللّه لا تعاقبنــي علــى قســوة قلبــي بفقــده، فقــد وعيــتُ الــدرس جيــداً، يــا اللّه كلهــم أولادي فاحفظهــم لــي مــن كل ســوء"، كلمــات تتمتــم بهــا وهــي تضــم أولادنــا لقلبهــا مــرة أخــرى بعــد طــول غيــاب، ودموعنــا جميعــاً تشــهد هــذه اللحظــات الموجعــة، وتســجلُ توبــة بعــد عقــوق ونكــران، ووعــداً بالشــكرِ والرضــا بقضــاء الرحمــن.

أتذكــر هــذه اللحظــات التــي أنعــم اللّه علينــا أن تخطيناهــا بفضلــه، وعفــوه عــن وليــدي ونجاتــه، ونجــاة زوجتــي مــن شــيطانها، وعودتهــا لنــا جميعــاً، أمــاً وســكناً واحتــواءً.

اليــوم بعــد مــرور ســنوات مــن العطــاء والحــب والتضحيــات، بعــد أن قــدر اللّه لنــا اللقــاء أخيــراً، أتيتــك حبيبتــي لأرتــاح إلــى جانبــك، حملنــي أولادنــا إليــك وديعــة وأمانــة، وعــادوا مــع أمهــم، صديقتــك، وزوجتــي، التــي اســتطاعت بعــد ســنوات طويلــة أن تشــاركِك بجــزء مــن قلبــي، كمــا شــاركتني حياتــي وأولادي..

تركونــي هــا هنــا لأنعــم بصحبتــك مــرة أخــرى لا فــراق بعدهــا، وعــادوا حامليــن وصيتــي بقلوبهــم، أن كونــوا علــى قــدر الأمانــة، فقــد جــاء وقــت الحصــاد لمعــروف رَوتــهُ بعمرهــا، وحــان الوقــت لتــردوا لهــا بعــد غيابــي جــزءاً مــن فضــلٍ غمرتنــا بــه، فكانــت التريــاق لأوجاعنــا، والســند لضعفنــا، والنجــاة مــن ضياعنــا، فقــد وهبتنــا حيــاة، حياتهــا بــكل الرضــا.

«الألم الثالث»

« درة التاج »

ثِقلٌ كالجبال يجثم على روحها، فتتململ داخل جسدها المسجى على هذا السرير الوثير يصيبها بالاختناق، تشعر وكأن غرفتها قد تحولت لقطعة من الجحيم، على الرغم من وجود وحدة التبريد التي تعمل بكامل قدرتها، إلا أنها تشعر وكأن هبات من نيران تلفح وجهها وجسدها، لا تستطيع الحركة، جسدها مثبت بقوة عظيمة لا تعلم ماهيتها، تحاول الصراخ، فلا يفارق صوتها حنجرتها الجافة كرمال الصحراء في يوم شديد القيظ، تسمع ضحكات مجنونة تتردد داخل عقلها، وكأنها تتيه في عالم مشوه التفاصيل، كلمات مبهمة، لغة لا تدرك ماهيتها، ولا تستوعب معانيها، كفحيح ألف أفعى تعتصر عقلها وقلبها، صوت، وكأن الشيطان نفسه اصطفاها من العالمين ليسمعها همسه، أن هنيئاً لكِ، فقد حان دورك لتزيني تاجي، أنت من سعى لهذا، فلتتحملي العواقب..

تنتفض مفزوعة من غيابات أحلامها، على صوت رنين هاتف منزلها المزعج يتردد بإلحاح، لا تدرك أهو جزء من حلمها المرعب، أم واقع أشد رعباً، تحس بجسدها يتحرر تدريجياً من خدره، تمد يدها لتلتقط الهاتف بأنامل مرتعشة، تضع السماعة على أذنها لتسمع فحيحاً وضحكات مجنونة...

- لا تفزعي، لقد كنت أبحث عمن تناسب خططي، وأنت من جاءت تسعى لمصيرها، فهنيئاً لك أن صرت المختارة..

- من أنت أيها المجنون، وأي خطط تتحدث عنها، وأي مختارة ولأي شيء تم اختياري؟!

- إنه أنا، قدرك المظلم الذي سيظل يطاردك أبد الدهر، من أسكن الرعب بين جوانحك، ظلك الذي جعلك تتلفتين من حولك كلما شعرتِ بلفح أنفاسي على وجنتيك، أسكن أحلامك منذ رأيتني، أقتات على عقلك، أفكارك، وذكرياتك، أفتت مقاومتك تدريجياً، حتى إذا حانت اللحظة أتيتني صاغرة..

ضحكاته المجنونة تتردد.

تتذكر يوم تعطل بها المصعد منذ شهر مضى، حين اضطرت للصعود إلى شقتها على الدرج، وفي الطابق الثاني رأته، ظل أسود ضخم، يقف خلف زجاج هذه الشقة الملعونة، التي كانت سبباً في فرار ساكني المبنى لسنوات طويلة، لكنها لم تصدق ما قيل يوماً، اقتربت من الباب هامسة:

- من بالداخل؟!

اعتقدت بوجود متسلل يختبئ بالشقة دون علم أصحابها، فحاولت تهديده بأنها سوف تطلب الشرطة ليتم القبض عليه بداخلها، لحظات من السكون مرت، تبعها تردد هذه الضحكة التي اقشعر لها بدنها، فهبطت مسرعة تستنجد بحارس العقار.

هربت الدماء من وجه الحارس عندما قصت عليه ما حدث، وأخذ يتمتم بآيات من القرآن، وحذرها ألا تعاود الاقتراب مهما حدث، فالحكايا الغريبة التي تدور حول هذه الشقة وساكنيها

يشيب من هولها الولدان، حتى أن الحارس السابق قد حذره أن يقترب منها أو يحاول تسكين أحد في الدور الثاني بأكمله، فخلف

هذه الأبواب جحيم مستعر.

منذ هذا اليوم المشئوم، سكنَ أحلامها، تحس بوجوده من حولها في كل وقت، هذه الأحلام التي تتكرر بشكل مستمر، ودائماً تفيق من نومها على همسه الذي يجمد أوصالها رعباً، وما زاد هلعها، هذا الجنون الذي اجتاح الحي الذي تسكنه، جرائم قتل حيرت الجميع، لم يستطع أحد سبر أغوارها، سرى الرعب والخوف كالنار في الهشيم، مَن هذا القاتل الذي يوسم ضحايا في جبهتهم بالنار كما البهائم ويقتلع عيونهم من محجريها، ويصلبهم على جدران غرفهم، لتكتمل اللوحة البشعة، التي كانت سبباً في هرب الكثيرين خوفاً على حياتهم من هذا المختل الطليق، لكن ما لم يتخيله أحد، هو صلتها بهؤلاء الضحايا، فلكل منهم معها موقف سبَّب لها الألم يوماً، بعضهم منذ سنوات الطفولة المبكرة، حين تنمروا على جسدها السمين، وحروفها المتساقطة سهواً عند الحديث، عندما حاولت المشاركة في حفل جماعي بمدرستها، وهذا قد رفضها زوجة لابنه الذي أحبها، والأخير قد حاول الفتك بها كونه مرؤوسها في العمل، حتى اضطرت لتركه غير آسفة.

سنوات مرت على هذه الأحداث، تحولت فيها شكلاً وموضوعاً، حتى أنهم لم يصدقوا ما حدث لها من تغيرات عند عودتها للحي مرة أخرى.

قطع أفكارها عودة ضحكاته مرة أخرى، لكن هذه المرة لم تكن من خلال الهاتف، لقد أحست بوجوده معها في الغرفة، حتى أن جسدها أصابه شلل مفاجئ، ثبتها إلى سريرها، لا تقدر على الحراك، شعرت به يحوم حول جسدها العاجز،

يـردد همهمـات كثيـرة، وكأنـه يلقـي تعاويـذ تشـبه تلـك الموجـودة فـي أفـلام الرعـب، تزيـد سـخونة الغرفـة مـن حولهـا، ويلفـح روحهـا زمهريـر يحرقهـا، كمـن يتجمـد داخلـه ويحتـرق مـن الخـارج، رأتـه يقـف هنـاك، أمـام زجـاج شـرفتها، يخيـل لهـا وكأنمـا يمتلـك قرنيـن يخرجـان مـن رأسـه، شـعرت بجسـدها يُحمـل كطفـل صغيـر، يطيـر إليـه، يقـف أمامـه جامـداً، تتسـع ابتسـامته لتكشـف عـن أنيـاب كالضـواري، يرفـع كفـه لتواجـه جبهتهـا، تصـرخ مـن الألـم، رائحـة جلدهـا المحتـرق تزيـد مـن اختناقهـا وعذابهـا، تتمنـى المـوت علـه يأتـي رحمـةً لهـا، لكـن هيهـات .. فلـم يحـن الوقـت بعـد!

يحدثهـا، يثنـي علـى جمـال عينيهـا اللتيـن بلـون السـماء الصافيـة، وكيـف سـتكون درة تاجـه وجوهرتـه النفيسـة، كيـف سـتهبه القـوة المطلقـة، وتكـون نهايـة رحلتـه واكتمـال الصفقـة التـي عقدهـا مـع الشـيطان، خمسـة عشـر قربانـاً لسـيده، فـي كل ليلـة فرديـة مـن الشـهر يكـون موعـد التضحيـة، يتـم الوشـم والصلـب وتُخـرج العيـون مـن محاجرهـا، لترصـع تاجـه، وهـا قـد جـاء دورك يـا درة التـاج، مـع نهايـة الشـهر، وبدايـة الخلـود.

شـعرت بقـوة تسـحقها إلـى جـدار الغرفـة، تثبـت يديهـا وقدميهـا ورأسـها كمـا المصلـوب منـذ دهـور، يقـف أمامهـا، تمتـد يـداه نحـو عينيهـا، تتعالـى صرخاتهـا مدويـة تشـق الليـل، تفـزع سـاكني فـوق الأرض وتحتهـا، تقلـق راحـة الموتـى فـي القبـور، تستسـلم للمـوت راضيـة راغبـة، فهـو الراحـة والخـلاص، يكمـل جواهـر تاجـه بأثمنهـا، يتقلـد تاجـه، تتألـق خمسـة عشـر زوج مـن العيـون الميتـة بنظـرات شـيطانية، ويفتـح الجحيـم أبوابـه علـى مصراعيهـا.

«الألم الرابع»

« قدر»

فراشـة هـي برقتهـا وخفتهـا، تطيـرُ بيـن الأرجـاء حاملـة عبيرهـا لتنثـره حولهـا، تُذكـرك ببائـع المسـك، كلمـا اقتربـتَ منهـا نالـكَ شـيء مـن جمالهـا.

تتشـبث بحجابهـا المتطايـر بفعـل الريـاح، تخلـعُ حذاءهـا الرياضـي لتعـدو علـى شـاطئ البحـر، علـى الرغـمِ مـن بـرودة الجـو وقطـراتٍ مـن المطـر المتسـاقطة علـى اسـتحياءٍ، تتنـاثـر مـن حولهـا ليكتمـلَ بهـا سـحر اللحظـة.

تتوقـفُ بيـن الحيـن والآخـر ملتقطـةً بعـض الأصـدافِ الخلابـة الشـكل والألـوان، التـي هجرهـا سـاكنوها، فحملهـا المـوجِ للشـاطئ، لتفترشـه بلوحـة متباينـة المعالـم، تلمـحُ بينهـا هـذه المحـارة الكبيـرة الحجـم، تتـدرج ألوانهـا بيـن بيـاض نتـف السـحاب، ولـون الرمـال المتـدرج بيـن الأصفـر والبنـي، مخلوطيـن مـع بعـض الخطـوط السـوداء التـي تشـبه مـا تحفـره الحيـاة علـى جـدران قلوبنـا مـن صـدوع.

تضـع المحـارة علـى أذنهـا، تتسـمع صـوت البحـر الهـادر داخلهـا، عازفًـا سـيمفونية همجيـة فـي قوتهـا، تتسـرب إلـى روحهـا برقـة سـرب مـن الفراشـات، فتتطايـر ضحكاتهـا عاليـة، تندمـج مـع صـوت الريـاح، والأمـواج، وطائـر النـورس الـذي يحـوم حولهـا وحيـدًا تتقاذفـه الأمنيـات.

يظـن مـن يراهـا للوهلـة الأولـى، أنهـا فتـاة تعيـش حالـة مـن العشـق والسـعادة اللامتناهيـة، لا يؤرقهـا فـي الحيـاة هَـم، ولا يشـغل

عقلها من الدنيا خطب، تفترش الرمال، وتلتحف السماء، تتدثر برياح تحمل ملوحة البحر، تنثرها على وجهها وشفتيها لتتذوق ملوحتها الممزوجة بدموعها المتساقطة في صمتٍ قاتل، لا يراها إلا مَن أمعن النظر إليها، ليدرك أن عينيها تشاركان السماء في هطول أمطارهما.

تدور حول نفسها ككويكب اشتعل داخله بالحمم، في حين ترى سطحه هادئاً كمرآة مصقولة، لا ترى أسفل سطحها اللامع، ضحكاتها الرنانة مشبعة بالحُزن والألم، ورقصاتها على الرمال كرقصة طائر ذُبح ويصارع للاحتفاظ بحقه في الحياة لآخر لحظة.

صور تتسابق في ذهنها، حياة تبدلت للنقيض في غمضة عين، فمنذُ شهور معدودات، كانت تتألق كالبدر في ليلة تمامه إلى جوار حبيبها، ومن حولها الكون يشاركها سعادتها، تنظر لخاتمه يزين يدها، شاهدًا على وعدٍ قد تحقق، لا يعكر صفوها سوى هذا الألم الرهيب الذي يهاجم رأسها من وقت لآخر، فيفقدها بعض رونقها مع كل نوبة ألم تبدد سلامها، نوبات تكررت مرارًا في الآونة الأخيرة، تتركها مستنزفة القوى، لا تقدر على شيء، تحاول الهروب من الألم ومن الذهاب للطبيب خوفًا مما قد يكون.

تقف في وسط حفلها، تشارك حبيبها وصديقاتها فرحتهم بها، تتمايل مع الموسيقى برقة تخطف أنفاس وعيون هذا الوسيم الواقف قبالتها، تنظر إليه فرحةً، تحاول السيطرة على ترنحها المتعاظم، لحظات تحسبها دهرًا ينهش فيها الألم رأسها

وخلاياها، دوامة تدور فيها بسرعة جنونية، حتى أظلمت الحياة

أمـام عينيهـا، فكانـت الهاويـة التـي غاصـت فيهـا وأفقدتهـا وعيهـا وكل علاقتهـا بالحيـاة..

ضاعـت أنغـام الموسـيقى وسـط نوبـة مـن الصـراخ، انفـض الحفـل، وتحولـت السـعادة لحالـة مـن الرعـب، حُمـل جسـدها الغائـب عـن الحيـاة لأقـرب مستشـفى، سـيلٌ مـن الفحـوص زادت مـن إنهـاك جسـدها، وكانـت الطامـة الكبـرى بإعـلان النتيجـة، إنـه هـذا اللعيـن يسـتوطن جسـدها، يحكـم قبضتـه علـى خلاياهـا، حتـى صـارت النجـاة كـدرب مـن المسـتحيل.

كان للخبـر وقـع الصاعقـة علـى كل المحيطيـن بهـا، لكنها اسـتقبلته بصمـتٍ تـام، لا دمـوع، لا صـراخ، وكأنهـا تحولـت لصنـم أصـم، آلاف الأسـئلة والاحتمـالات والصراعـات تـدور بداخلهـا..

لمَ الآن في ذروة فرحتها؟!

ماذا سيحدث بعد؟ أهي النهاية؟!

ماذا سيفعل أبوها وأمها وإخوتها؟

وحبيبها؟ ماذا عنه؟

كيـف سـتعيش أحلامهـا والأقـدار تصـر أن توقظهـا بأقسـى طريقـة ممكنة ؟

وفـي غمـرة الضيـاع اتخـذت قرارهـا، وقفـت وسـط الغرفـة تتحامـل علـى ضعـف سـاقيها، ترسـم علـى شـفتيها ابتسـامة باهتـة، وقـف الجميـع ليسـاندوها، فأبَـت.

عـادت لبيتهـا بعـد مرورهـا بجلسـات مكثفـة مـن الأدويـة التـي تسـرق مـن روحهـا الحيـاة، علـى وعـد بعـودة أخـرى بعـد بضعـة أيـام،

لتكرر نفس المأساة، لكنها تشعر برضا غريب يسكن روحها، يؤكد لها أن الخير فيما اختاره الله لنا، ولو كان المعاناة. جاء حبيبها ليعودها، رأت الألم يرتسم بحدقتيه، وخطوطًا من الحزن منقوشة فوق ملامحه، وكأنما هدَّ الهِرم أركانه في أيام قلائل..

- كيف حالكِ يا قرة العين؟ (سألها).

-أنا بخير حال ..لا تقلق، لكن أريد أن أطلب منك شيئًا لأجلي (قالت).

- لكِ مني كل ما تتمنى روحك، فلتطلبي ما تشائين (رد متلهفًا لإرضائها).

ثبتت نظرها على اللامكان، وتظاهرت باللامبالاة وعينها تغشاها الدموع، ودقات قلبها تصم أذنيها فلا تسمع سواها.. بأصابع مرتعشة خلعت خاتم خطبتها، وبيدٍ أبت ألا تطاوعها مدته إليه..

- أتمنى لك السعادة مع سواي.

نظر إليها مصعوقًا، لا يستوعب ما تفعل، ولا يقدر على النطق..

- ماذا تفعلين؟ (سألها)

- فلتتقبل قراري لأجلي، أرجوك.

قالتها وانسحبت تاركة إياه ينظر حيث وضعت خاتمه، وقلبه يذرف دموعه لأجلها.

استيقظت في اليوم التالي مع الفجر، تصلي فرضها، تحس بقوة تسري بأوردتها، بعد أن نَجحت في إطلاق سراح حبيبها

مـن التزامـه بهـا وبقدرهـا المحتـوم، تحـارب منـذ شـهور محاولـةً أن تحلـه مـن وعـده، لكنـه كان يتمسـك بهـا أكثـر، وبالأمـس كان الفـراق، فلـو قُـدر لهـا أن تخسـر أحلامهـا، فهـو يسـتحق مـن تشـاركه أحلامـه وتصـل بـه إلـى برٍ للأمـان.

أتـت هاربـة إلـى مكانهما المفضـل، الذي شـاركهما أجمـل لحظاتهما، هـذا البحـر الـذي كان شـاهدًا علـى وعودهمـا، اليـوم يشـهد دموعـاً تذرفهـا لأجـل عمرهـا وحبهـا وأحلامهـا، تبكـي وحدتهـا وألمهـا، ترمـي إليـه بحمـولٍ كالجبـال تثقـل كاهلهـا علـه يخفـف عنهـا.. وكأن الكـون يأبـى أن يتركها لحزنهـا وحيـدة، فشـاركتها السـماء دموعهـا، وشـاركها البحـر غضبهـا، وهـذا النـورس يشـاركها وحدتهـا، وحزنهـا يبكيهـا بصيحـات تشـابه صرخاتهـا.

لـم تـدرك مـن بيـن دموعهـا أن مـن تبكـي فراقـه، يقـف هنـاك يـذرف دمـوع قلبـه لحالهـا، يشـاركها عذابهـا الـذي حرمتـه أن يحملـه معهـا، فاكتفـى بمجـرد قربـه منهـا، وآثـر بقـاءه هنـاك فـي أقصـى الظـل، ينتظرهـا.

«الألم الخامس»

« براءة »

تراهـا باكيـةً منتحبـة، تحمـل فـي يدهـا النحيلـة زجاجـة بلاسـتيكية صغيـرة، تسـير وسـط شـوارع هـذه القريـة النائيـة، القابعـة فـي أحضـان هـذا العظيـم الهـادئ حـد الملـل، الثائـر حـد الجمـوح، طفلـة فـي خفـة العصافيـر، تقفـز علـى أطـراف أصابعهـا، تريـد التحليـق إلـى السـماء، فترافـق الفراشـات، علهـا تعبـر للجانـب الآخـر مـن الحيـاة، ترسـم دموعهـا خطوطًـا بائسـة علـى وجنتيهـا، تنكفـئ بنظرهـا علـى الأرض، باحثـةً عـن شـيء مـا، كأن العمـر قـد سـقط منهـا وتناثـرت حباتـه أرضـاً، فتعـدو هنـا وهنـاك لتلملمهـا قبـل فـوات الأوان.

تسـير بمحـاذاة النيـل العظيـم، تـراه يلتـف حـول القريـة يحتضنها بيـن جنباتـه بشـوق العاشـقين، فتزهـر وتنمـو بداخلهـا حيـوات شـتى، تلمـع فـي عيـون الأطفـال المتدثريـن بأثمـال لا تقيهـم سـياط هوائـه حيـن تشـتد، فـي وجـوه هـذه الفتيـات الملوَّحَـة بأشـعة الشـمس، وهـن يتمايلـن فـي الطرقـات كسـرب مـن الغـزلان الشـاردة، تحملـن علـى رؤوسـهن آنيـة مختلفـة الأحجـام، تمتلـئ بالمـاء القـادم مـن «الطلمبـة» القابعـة فـي طـرف البلـدة البعيـد، فـي الخطـوط الغائـرة حـول عيـون العجائـز المتراصيـن علـى «المصاطـب» كتماثيـل عتيقـة، حفـر الدهـر خطوطـه العميقـة فـي تفاصيلهـا، وكأنهـا روافـد جديـدة لهـذا النيـل العظيـم وجـدت طريقهـا بيـن تقاسـيم أبنائـه الشـامخة، تعـدو «أميـرة» هنـا وهنـاك تحـت أنظارهـم، تتسـاقط دمعاتهـا خوفـاً من فعلتها التي لا محالة ستعاقب عليها أشد العقاب..

تحـدث نفسـها، تلومهـا وتوبخهـا، تفكـر فـي العقـاب الـذي سـتتلقاه

عما قريب.. تحدث نفسها:

''لابـد أن أجـده سـريعاً، لابـد أن قطـرات المـاء المسـكوبة علـى أرض الغرفـة الطينيـة قـد جفـت منـذ زمـن، فهـي لا تسـتغرق سـوى دقائـق قليلـة فـي كل مـرة''، يـزداد بكاؤهـا حـدة، وتقـرر أن تعـود مـن نفـس الطريـق مـرة أخـرى علهـا تعثـر عليـه.

تَرى صديقةً لها قادمةً تعدو من بعيد، تناديها..

- فاطمـة، هـل وجـدت ورقـةً بيضـاء ملفوفـة بعنايـة فـي طريقـك وأنـتِ قادمـة إلـى هنـا؟

- لا لـم أر أي أوراق ملفوفـة فـي طريقـي.. هـل أضعـت شـيئاً ثمينـاً؟

- نعم.. سقطت مني هذه اللفافة الورقية، ولا أجدها.

- هل تتذكرين أين سقطت منك؟

- لعلهـا سـقطت حينمـا وقفـت ألهـو علـى شـاطئ البحـر، أشـاهد الفتيـات يقفـن علـى بعـض الأحجـار التـي صبغتهـا الطحالـب بلـون أخضـر يلمـع تحـت سـطح الميـاه الصافيـة، تتـراص بمحاذاة الشـاطئ، يبـرز بعضهـا فـوق سـطح المـاء وكأنهـا تسـترق النظـر إلـى العالـم مـن حولهـا، تشـمر الفتيـات عـن أقدامهـن المرمريـة، ينشـغلن فـي غسـل الآنيـة النحاسـية حتـى تلمـع وكأنهـا شـموس تشـرق بيـن أيديهـن..

- هل ذهبت إلى مكان آخر غير هذا؟

- نعـم، لقـد وقفـت برهـةً أتأمـل الصبيـان يحملـون «الصنانيـر» المصنوعـة مـن البـوص، يتدلـى مـن طرفهـا خيـط رفيـع طويـل ينتهـي بخطـاف مـن المعـدن، يحملـون باليـد الأخـرى علبـة بلاسـتيكية

صغيـرة تمتلـئ بديـدان الأرض التـي يسـتخدمونها كطعـم لإغـراء الأسـماك الغافلـة، التـي ألهاهـا الجـوع عـن المـوت القابـع داخلهـا، يقذفـون بهـا إلـى قلـب النيـل الجـاري، يتجرعـون كـؤوس الصبـر لسـاعات طويلـة، ينشـدون بعـض الأغنيـات المسـلية، عسـى أن يرضـى هـذا العظيـم، فيجـود عليهـم ببعـض مـن عطائـه ليكـون وجبـة لهـم ولذويهـم.

- إلـى أيـن كنـت تنويـن الذهـاب؟ ومـاذا يوجـد بداخـل هـذه الورقـة التـي تبكيـن ضياعهـا؟

(سألتها صديقتها قاطعةً سيل أفكارها)

- أرسـلتني جدتـي إلـى خالتـي «شـوق»، وأعطتنـي جنيهـاً ورقيـاً ملفوفـاً بورقـة بيضـاء طوتهـا بيـن يـدي، لأشـتري لتـراً مـن الجـاز لأجـل هـذه اللمبـة الأثريـة المعلقـة فـوق حائـط غرفتهـا، والتـي تصـر علـى اسـتخدامها رغـم وجـود المصبـاح الكهربـي، ولأشـتري لنفسـي أيضـاً بعـض الحلـوى التـي أحـب.. لكننـي أضعـت الجنيـه، فـلا اشـتريت الجـاز ولا حظيـت بالحلـوى.

- فلتـأت معـي لنذهـب للخالـة « شـوق» ونشـتري منهـا الجـاز، ونخبرهـا أنّنـا سـنحضر لهـا المـال فـي الغـد، وليحلهـا الله بعـد ذلـك مـن عنـده.

تسـيران معـاً فـي شـارع القريـة المـوازي للنيـل مسـرعتين، وفـي زقـاق جانبـي، يظهـر بيـت الخالـة شـوق، حيـث تبيـع فيـه لأهـل القريـة كل مـا يخطـر ببالـك، ومـا لا يخطـر أبـداً، الحلـوى بـكل أنواعهـا، الدقيـق والأرز والسـكر والسـمن والزيـت، جنبـاً إلـى جنـب مـع قوالـب الصابـون والرابسـو والسـافو والكلـور، فـي المدخـل يقبـع هنـاك هـذا البرميـل الضخـم الممتلـئ بالجـاز، يسـتقبلك برائحتـه

النفـاذة التـي تمـلأ الجـو، ومـن فوقـه «القُمـع» و«الشفشـق» المسـتخدمين فـي صبـه لمـن يشـتري..

تخطـو داخـل المنـزل مـع صديقتهـا، يلفهـا الظـلام، فتنقبـض روحهـا خوفـاً، تتراقـص الخيـالات التـي يصنعهـا هـذا المصبـاح الكهربـي المحتضـر المتدلـي مـن سـقف الغرفـة المرتفـع علـى الحائـط، تخنقهـا الروائح المتداخلـة.. تنـادي بصـوت يقتـر خوفـاً..

- خالتي «شوق».. خالتي «شوق».

ترد عليها من الداخل: من؟

- أنا أميرة يا خالة.

- تعالي يا غالية يا بنت الغاليين.

تدخـل غرفتهـا التـي تشـبه صنـدوق الدنيـا علـى اسـتحياء، الكثيـر والكثيـر مـن الأشـياء التـي تعرفهـا والتـي لا تعلـم لهـا اسـماً، أجولـة كثيـرة غامضـة تسـتند مجهـدةً مهلهلـة علـى حائـط يوشـك أن يتداعى مـن فـرط قِدمـه، لمبـات جـاز عتيقـة معلقـة بمسـامير صدئـة علـى الحوائـط، تَرتسـم مـن فوقهـا خطـوط سـوداء شـاهدةً علـى احتـراق فتيلهـا مضحيـاً بنفسـه مـن أجـل بـث القليـل مـن الضـوء ليكسـر عتمـة هـذه الغرفـة الحزينـة.

وهنـاك.. علـى هـذه الدكـة المتهالكـة تجلـس الخالـة «شـوق»، بجسـدها النحيـل المغطـى بجلبـاب فضفـاض أسـود اللـون، تغطـي شـعرها الثائـر «بقرطـة» مزخرفـة بالكثيـر مـن الزهـور الملونـة، مـن فوقهـا طرحـة أخـرى مـن الحريـر الشـفاف بلونهـا الأسـود، حفـر الزمـان علـى وجههـا تفاصيلـه، عيونهـا السـوداء المكحلـة اللامعـة رغـم سـنواتها التـي لا تسـتطيع تحديـد عددهـا لكثرتهـا، شـفتاها

الدقيقتان، بهذا الوشم المائل للخضار القابع هناك أسفلها على ذقنها النحيل، هذا القرط الذهبي الدائري الضخم، البارز تحت طرحتها، لتكتمل الصورة الهاربة من صفحات التاريخ العتيق.

قصت أميرة عليها ما حدث، وكيف سقط منها الجنيه في الطريق، وكيف أن جدتها لابد تنتظرها الآن بالوعيد لتأخرها، فرقَّ لها قلب الخالة العجوز، قامت فأعطتها الحلوى، العسلية بالسمسم التي تعشقها، وملأت زجاجتها بالجاز وأغلقتها جيداً، لتناولها إياها مع توصيات بألا تلهو في طريق عودتها، ووعد بأن تدون ثمنها في نوتتها الورقية الصغيرة حتى تأتيها أميرة بنقودها.

انصرفت الطفلة تحلق نحو بيت الجدة، لا تلمس أصابعها الأرض إلا نقرات، كعصفور صغير يسرق الحَب ويطير، وفي طريق العودة لم تر النيل ولا العجائز ولا الفتيات العائدات بأحمال من ورد النيل على رؤوسهن، ليكون وجبةً مسائية لطيورهن المنزلية التي تشاركهن المنازل، كل ما شغل فكرها أنها تأخرت في العودة، شكرت الخالة لستر سرها، ودخلت مسرعةً لجدتها الحبيبة، الجالسة دوماً على فراشها ذي الأعمدة النحاسية الكبيرة المغطاة بستائر من الشيفون الأبيض المطرز بوردات ناصعة الألوان، وعصافير رقيقة وكأنها جاءت من صفحة السماء الصافية لتحلق فوق القماش الثمين، تجلس الجدة كملكة متوجة على عرشها، تنطق عيناها بالذكاء الفطري والطيبة، أسرعت أميرة لتخبرها أنها أحضرت ما طلبت، وأعطت المال للخالة «شوق» التي ترسل لها الكثير من السلامات، فلاح شبح ابتسامة ساخرة على شفتي الجدة وهي تلوح لها بورقة بيضاء ملفوفة جيداً، بداخلها يرقد

جنيه ورقي أضناها البحث عنه، وها هو هنا لم يبرح مكانه، يبدو أنها ذهبت مسرعةً ونسيته مع الجدة التي شدت أذنها عقاباً على تحايلها.

«الألم السادس»

« آخر الزمان »

يسـير بسـيارته وسـط المعانـاة اليوميـة لزحـام القاهـرة العتيـد، يدنـدن مـع ماجـدة الرومـي عينـاك ليـال صيفيـة.. ورؤىً وقصائـد ورديـة .. يهيـم مـع كلمـات الأغنيـة، غارقاً بمشـاعر تملكتـه، وخيالات لقمـر يرتسـم فـي سـماء الكـون يتزيـن بعيـون محبوبتـه..

لقـد اعتـاد الزحـام، لكنـه اليـوم يـود لـو كان جنيـاً فيصـل إلـي الحُسـين فـي طرفـة عيـن؛ ليحقـق حلمـاً طالمـا راوده، يمـد يـده فيتحسـس جيـب الجاكيـت الـذي يرتديـه، وترتسـم علـى شـفتيه ابتسـامة تفيـض بالسـعادة والأحـلام الورديـة..

مـر عليـه يومـان حافـلان بالنشـاط والتخطيـط؛ ليفاجـئ محبوبتـه ويقـدم لهـا خاتـم الخطبـة الـذي صُنـع خصيصـاً لأجـل عينيهـا الجميلتيـن، حيـث كان لقاؤهمـا الأول فـي هـذه الحيـاة.. فـي سـهرة رائعـة علـى أحـد مقاهـي الحسـين العتيقـة، وسـط دندنـات العـود والموسـيقى الحالمـة، حيـث عـادت إليـه مـن جديـد فـي صـورة حوريـة سـلبت لبـه بوجـه ملائكـي، وعيـون بلـون القهـوة، نظـرات حالمـة وصـوت كتعويـذة سـحرية تنشـدها فتشـرق الشـمس فـي قلـب الليـل البهيـم، وتكتمـل صـورة الحلـم فـي خيالـه.. محبوبتـه وموسـيقاه المفضلـة فـي أكثـر الأماكـن قربـاً لقلبـه، إنـه يـوم سـعده بـلا أدنـى شـك..

ينظـر لسـاعته بتأفـف، لابـد أن أصـل إلـى المقهـى أولاً؛ لأكمـل باقـي الترتيبـات؛ ليعيـش هـذا اليـوم فـي ذاكرتنـا خالـداً. اتسـعت

ابتسامته وهو يراهم بعين خياله يجلسون وسط أحفادهم، يقصون عليهم تفاصيله بأصابع متشابكة وعيون تنبض بالهيام..

دقائق قليلة مرت وهو يحاول أن يجد مكاناً يترك فيه سيارته وسط هذا الزحام الخانق، قبل أن يكمل طريقه مترجلاً وسط كتلة بشرية، قلما تجتمع في مكان على وجه البسيطة، خليط بشري متباين من كل الطبقات والأجناس والثقافات، الغني والفقير، الفاجر والعابد، المثقف والأمي، الملاك وثُلة من الشياطين.

الكثير من السياح من كل بقاع الأرض يسيرون منبهرين بفنون العمارة الإسلامية في شوارع القاهرة القديمة بحكاياها وأساطيرها الغامضة، عبق من حيوات مرت وتركت فيضاً من البصمات الخالدة، تخطف منهم الأبصار والعقول، تأسر أرواحهم فيقتنصون من الصور زاداً وتذكاراً ليكون وقوداً لحكايات وذكريات يقصونها على أحبابهم.

تختلط معهم شرائح مختلفة من البشر، أكثرهم من التائهين المتألمين، فمن شق عليه الترحال لزيارة الحبيب، يتخذ من زيارة آل بيته مسكناً للأوجاع وسلوةً للأرواح وفيضا من نور حضرته، وترى الزاهدين الحالمين الطائفين بملكوت روحاني، يقرعون أبواب الود لحِب رسول العالمين سيد شباب أهل الجنة، الحسين ابن الأكرمين، ولكلٍ طريقته في التعبير عن هذا الحب، فالبعض يتعلق بأسوار القُربِ ويزرف الدموع ويرفع أكف الدعاء، والبعض يتحلقون حول شيخهم يهيمون ويدورون كالكواكب حول مركز للكون يدركونه ولا نراه، فتتعالى أصواتهم بتناغم يخطف القلوب ويخلق جواً من الروحانية والنقاء، يحملك لعوالم نورانية لا يسكنها البشر..

وعلى النقيض، وأمام الأعتاب الطاهرة تجدهن يحُمن كما يحوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، تاجرات العهر، بائعات الرذيلة بثمن بخس، نماذج ضالة يلبسن فلا يستترن، تتعالى ضحكاتهن الماجنة كإعلان مبتذل عن بضاعة فاسدة مستهلكة، يتجمع من حولهن كل حيوان جائع لنهش بقايا ما كن يملكن يوماً، تتفنن كل منهن في غواية البشر كأعتى الشياطين، كائنات لا ترقى إلى أن تكون من البشر، لكنها تتجسد في هيئتهم، تسكنها أرواح بيعت في سوق النخاسة، فأصبح الجسد سلعة لمن يدفع أكثر، وأصبحت الروح حبيسة أسوار من العهر والغواية، فلا ترى بصيصاً من نور ولا أمل للخلاص.

وعلى ضفاف المقاهي يتجمع الكُتاب وصفوة المجتمع الثقافي، يلتفون حول عازفٍ للعود يثير بدندناته الشجن في نفوسهم، يتناقشون بجدية حول أمجاد طواها الزمان، مستقبل الأدب غير معلوم الملامح، فما يلاقيه من كبوات وإفساد أصاب أركانه فأعياها، وكيف أصبحت الثقافة والفنون في طور الاحتضار لِما طالها من أوبئة فكرية وطفيليات تتكالب عليها لتقتل الإبداع فيها..

وعلى بعد خطوات قليلة، هذا المقهى الذي يشع بأجواء من الرومانسية، كنجمة في سماء الكون هامت، يسكنها العاشقون الحالمون، ينفصلون عن الواقع، تتمايل أرواحهم مع إيقاع الموسيقى فيخلق كل منهم من عيون محبوبه جنة يسكنها بصحبته، لا يبرحها ما ظل يتردد بين جنباته قبس من حياة..

يخطفه من بين خيالاته صوت مميز لدرويش يهيم في الطرقات، متلحفاً بعباءة خضراء، والكثير من السبح التي تغطي صدره، ممسكاً بمبخرة تفوح منها روائح العود يمزجها بكلماته المبهمة..

مدد من غير عدد..

ومنك يا حبيبي .. الرفقة والسند..

مولد وفيه تايهين .. والكل ولا داري

عايشين وكأنهم مخلدين للأبد

ويا بخت من شال لرحلته زادها ..

واختار طريق مولاه..

وما غرتوش الأماني

وطول أمل في حياة..

والرامي سهمه انطلق

وكله كون فاني..

ما تعرف باقي له ساعات

والا كلها ثواني..

يتأمل كلمات الدرويش ويتساءل: كيف لمجذوب أن ينظم هذه المعاني العميقة ويتغنى بها؟!

ليجذبه من أفكاره صوت ضحكة رقيعة تصدح في المكان، وصورة مجسدة لفينوس الإغريقية تحوم حول الدرويش السارح في ملكوته لتسخر منه، تسكت كلماته، يتجمع من حولها بعض من سقطات البشرية المشكوك في هويتهم الجنسية، فيصدح الدرويش بكلمات كالرصاص تصيب أسماعهم...

تايهين .. مساكين..

روح سجنها جسد بالي

وبأبخس الأثمان بايعين..

بضاعة وتمنها العار

في سوق النخاسين..

لا أمل في توبة ولا نجاة..

والمصير مع أعتى الشياطين..

ما باقي غير ساعات

ولا بالخراب القريب حاسين..

كتاب بلون الشقي وسمه

ويا هناه من نال قربه

ويا ويله من لحق بالضالين..

صمتت الضحكات الرقيعة، وانفض الجمع من حوله مع كلماته التي نزلت على أرواحهم كوقع السياط، ففروا هاربين..

في زاوية بعيدة وقف يتابع الموقف، تاه في كلمات الدرويش ومعانيها، وأحس بانقباضة في صدره، واتجه إليه يحادثه؛ عله يوضح ما قصد بكلماته وعن أي خراب يتحدث، فوجده ينظر إليه وكلماته تتسارع من بين شفتيه:

قلب مسكين .. ملاه الأمل والحنين

حلم وطال انتظاره

بس دي مش داره

فالجأ لمن هو السند

واطلب العون منه والمدد

ولا تحزن على ما سيفوت

فكله كون فانِ

وسبحان من له الملكوت

حي لا يموت

وفـي طرفـة عيـن اختفـى مـن أمامـه، كأن لـم يكـن ولـم يعـد لـه أثـر.

ظـل مشـدوهاً لدقيقـة لا يعـي مـا يـدور مـن حولـه.. يشـعر بـكل ما يحيـط بـه فـي حالـة غريبـة، حتـى ذرات الهـواء تـكاد تحـس بثقلهـا مـن حولـك، توقفـت نسـمات الهـواء عـن هبوبهـا اللطيـف وأصبـح الجو خانقـاً، حتـى القطـط، التـي كانـت تلهـو فـي كل مـكان، حـول الموائـد وبيـن السـائرين، اختفـت فجـأة هـي الأخـرى.

أفـاق مـن أفـكاره الغريبـة علـى يـد تربـت علـى كتفـه برقـة الفراشـات، قفـز قلبـه فرحـاً داخـل تجويـف صدره، واسـتدار ينظـر إلـى حبيبتـه بشـغف، وتسـاءل "كيـف غابـت عـن فكـره للحظـات بسـبب هـذا الدرويـش المجنـون؟».

ومـن داخـل المقهـى، فـي زاويـة منعزلـة توحـي بالخصوصيـة، ألحـان تصحبـك لبعـد آخـر مـع الحبيـب فيتوقـف الزمـن، أشـرقت العيـون ببريـق يطغـى علـى ملاييـن الشـموس، حيـن ركـع علـى ركبتيـه حامـلاً بيـن أصابعـه رمـزاً لربـاط مقـدس، ووعـداً ألا يفلـت أحدهمـا يـد الآخـر لآخـر الزمـان.

تجمع العديد من رواد المقهى منتشين بهالات الحب التي تحلق من حولهم، مشاركين في الاحتفال الذي أعد بمنتهى العشق، غير مدركين لما يدور في الخارج، حيث تضئ السماء بأضواء مبهرة، وكأن آلاف الانفجارات الصغيرة تبعثرت بين طياتها، وطغى صوت الموسيقى على صوت أبواق الرعد التي تزأر معلنة عن كارثة على وشك الحدوث، وأي كارثة لو يعلمون!!

ولأول مرة في تاريخ البشر الحديث اجتمعوا على صرخة واحدة، صرخة مدوية، تنذر بالفناء، توحِّد نبض الأفئدة المسكونة بالرعب، لا تُفرق بين حاكم ومحكوم، بين غني ومُعدم، متعلم وجاهل، إنها الوحدة في الأفكار والمشاعر والمخاوف والضياع.

ومع بداية الإحساس بهزات أرضية عنيفة، وكأن الأرض تضرب بمطارق من قلب الجحيم، ثارت البحار على شطآنها، واندفعت أمواجها ثائرة، منذرةً بني البشر أن الرحلة كادت تنتهي، اجتمعت على عالمنا شتى أنواع الكوارث المهلكة، زلازل مدمرة، وبراكين، وفيضانات مكتسحة، قطع من الجحيم تتساقط في كل مكان ليدركوا أنهم في هذا الكون كحبة غبار تحملها هبة ريح فتذروها.

تصريحات تتخبط بين ألسنة الساسة والحكام الرازحين تحت نير غفلتهم للنهاية، مؤكدين أن كل شيء تحت سيطرتهم، في وقت تصدعت فيه الجبال وفار التنور، وقذفت الأرض سَمومها غضباً.

تتوالى الضربات الآتية من الفضاء الفسيح لكوكبنا الذي ودع الأمان، وأصبح على وشك أن يودع الحياة البشرية نفسها، فها هو المذنب الذي طالما سخر من اقترابه سكان الأرض لعقود،

وكأن كلماتهم تعويذة استدعاء، أحضرته من أعماق المجهول، لقد حان الوعد الحق، وتحققت النبوءة، وجاءت النهاية من قلب الظلام السرمدي متحدية البشر، بكل ما اختالوا بامتلاكه من تطور وغرور لن يغني عنهم اليوم شيئاً، هذه الكتلة العظيمة التي بُعثت، فكانت يد القدير، لتنهي أسطورة البشر الخالدة، وتبدأ النهاية لحياة قُدر لها الفناء يوم مولدها.

وكقطعة من أحجية العالم المتهالك، تحولت شوارع القاهرة إلى قطعة من الجحيم، ومع اختفاء كافة مظاهر الحياة المترفة، أحس الجميع بالذعر، ومع اشتعال الأحداث أكثر، وصل رعبهم لأبعد الحدود، فلم يترك للعقل موضعاً، وبدأ الهروب والتخبط، وسط صيحات تتعالى من بعض العقلاء، يطالبون الناس بالهدوء والاحتماء بأي شيء؛ في محاولة للسيطرة على نسبة الخسائر البشرية، فما كان منه حين سمع هذه الدعوات، إلا أن ضمها إليه، وأسرع يحتمي بأقرب ساتر خشبي متضرعاً إلى الله طلباً للنجاة.

هزات أرضية متتالية، السماء تمطر قطعاً من الجحيم تنشر الحرائق في كل مكان، تحول الهواء من حولهم لدخان أعمى الأبصار، اختفت التكنولوجيا، واضمحل العِلم البشري أمام قدرة الله، اختفت الصروح التي طالت أبواب السماء، اختفت الأسلحة الفتاكة التي أبادوا بها بني جلدتهم، أصبحت الأرض كذرة تراب في مهب ريح عاصف، فلا نجاة اليوم إلا لمن ملأ الإيمان قلبه، أصبحت الأرض كقبرٍ عظيم مشتعل بالغضب، تمتلئ سماؤها برسل من نار تتساقط حيث أُمرت فلا تُبقي ولا تذر، إنها القيامة الصغرى، ضياع ورعب وتخبط ملأ ربوع الأرض، كلٌّ يبكي على ليلاه، فهذا لا يعلم عن أولاده وزوجته شيئاً، وهذا يزرف الدمع

علـى والديـه متسـائلاً عـن مصيرهـم، ينتحبـون حيـن وجـدوا أنفسـهم وجهـاً لوجـه مـع خطاياهـم، تـكاد تطبـق علـى أرواحهـم، فيبـدأ الحسـاب دونمـا زاد ولا سـبيل للنجـاة.

وفـي وسـط هـذا الجنـون أدرك البشـر، باختـلاف عقائدهـم، ألا مهـرب ولا منجـى إلا باللجـوء إلـى الله، وفـي بيوتـه فـي مشـارق الأرض ومغاربها كان طـوق النجـاة، قبـس مـن نـور أضـاء، وكأنمـا تشـع الجـدران مـن حولهـم نـوراً، كلٌّ يذكـره بطريقتـه ولغتـه، صـوت يتـردد، تنشـره ذبذبـات أصواتهـم الرتيبـة، علمـوا أن النجـاة فـي حضرتـه، فاجتمعـوا غيـر آبهيـن لمـا يـدور مـن حولهـم، طالبيـن العـون .. المدد، وبيـن جنبـات الحسـين الطاهـرة، تـردد شـدوهم، ليخطـف القلـوب مـن بيـن أنقـاض الفـزع، تتثبـت بأطـواق السـكينة المنبعثـة مـن تـلاوات خاشـعة، يتخللهـا بعـضٌ مـن ذكـر بصـوت يخطـف الأنفـاس، وكأنـه ينبعـث مـن حناجـر ملائكيـة..

❖ مدد .. مدد .. مدد .. مدد

الله .. الله .. منك المدد

الله .. الله .. عظيم مدد

الله .. الله .. كريم مدد

يا رباه .. يا غوثاه ..

يا مولانا..

أيا روضة العشاق..

قد هيجت مهجتي

أيا حضرة الإطلاق فيضت صبابتي ..

اللّه .. اللّه .. مدد مدد

اللّه .. اللّه عظيم .. مدد

اللّه .. اللّه كريم مدد ..

يا .. خليلي قل اللّه وحده في الكثرة ..

لا ترى ما سوى اللّه في كل كائنة..

اللّه .. اللّه مدد مدد ..

اللّه .. اللّه عظيم مدد ..

اللّه .. اللّه كريم مدد ..

يا رباه .. يا غوثاه .. يااا مولانا

اخلع نعليك ..

وافنَ إن شئت ملاقاتي ..

إن أردت تعرفنا .. أنا عين الحياة ..

تساميت بعهد اللّه على كل حالاتي ..

لا إله إلا اللّه أفضل الكلمات..

ومن مآذنها الألف التي ظلت رغم الدمار شامخة تشهد بعظمة المعبود بين جنباتها، يتعالى صوت الأذان، يقر بميلاد فجرٍ يوم لم يكتب لشمسه الشروق، فجر توارى نوره خلف ظلام يغشى

الحيـاة بـكل مـا فيهـا، يغشـى القلـوب والأرواح، فجـرٌ اختلطـت بآذانـه الآهـات، ورويـت كلماتـه بعبـرات بنـي البشـر، إلا مـن كتـب لـه النجاة، وكفـاه زاده عـن سـؤال مـن سـواه، فخفـت المشـقة، وهانـت الصعـاب، وجـاء موعدهـم الصبـح ليلقـى كلٌّ نهايـة مسـعاه.

❖ "جزء من كلمات أغنية تراثية ينشدها سامي يوسف ومجموعته"

«الألم السابع»

«اغتيال»

تتلاقى نظراتهم خلسة تحت جنح الظلام المسدل أستاره، كل منهم يعدو بخفة الشياطين ليتمركز في مكانه المحدد، يحملون أسلحةً تنحني ظهورهم تحت ثقلها، وبين أكفهم حياتهم التي باتت على شفير الهاوية، وذكريات تتلاعب بأفئدة ما زال يسكنها بعض من أملٍ في النجاة..

يدرون من بدأ هذه الحرب البائسة، ومن سينهيها!! لكنهم كانوا وما زلوا وسيظلون دائماً هم الضحايا، من يدفع ضريبة النصر، وثمن الهزيمة الفاحش.

يتبادلون النظرات المتوجسة فيما بينهم، وكل منهم يُذَكِّر الآخر بوصية تركها، لآباء يفترشون سجادات الصلاة، يبللونها بدموع الرجاء ليحفظهم الله، لإخوة تهلكهم خواطر الفقد والفراق، لحبيبة تهيم جزعاً مخافة أن تفقد جزءاً من روحها بغيابهم، أو أبناء تركوهم خلفهم يعيشون على أملٍ بلقاء ذات يوم، لا يدركون معنى اليتم وأنيابه التي تمزق الأرواح، فتجعلها فتاتاً في مهب ريح عاصف..

يتقدمون بأمر من قائد لا يختلف حاله عنهم كثيراً، تطارده نفس الأشباح التي تقض مضاجعهم، أشباح الألم والذكريات والأمل والموت، بل يزيد عليهم شبح الذنب الثقيل الذي تحمله روحه كلما فقد أحد جنوده، في حرب يعلم جيداً أنهم حطب نارها ووقودها .. ومن قلب حصار العدو لهم في هذه البلدة الصغيرة، التي أُغلقت منافذها فصارت كالمصيدة المحكمة على من بداخلها، تتناثر الطلقات من حولهم كحبات المطر المنهمر

بـلا هـوادة، يأمرهـم قائدهـم أن يـردوا الصـاع صاعيـن، وليـزودوا عـن أنفسـهم ومـن بقـي فـي هـذه البلـدة المكلومـة بـكل مـا بقـي بيـن جنباتهـم مـن أمـل فـي الحيـاة، لعلهـم ينجـون!!

صرخـة مكتومـة يحـرق صداهـا أرواحهـم، تـرى هـذا الجسـد النحيل يتكـوم فـي الزاويـة، حيـث قَبـع مختبئـاً مـن المـوت، يُكلـل هامتـه أثـر لطلقـة مـن سـلاح مـا، سـلبته الحيـاة دون شـفقة، وطلقـات أخـرى حولـت جسـده الطاهـر إلـى لوحـة تنطـق بـكل آلام البشـر.

أتخيـل مـلاك المـوت ذاتـه واقفـاً دامـع العينيـن علـى قطفـه لزهـرات يانعـات، لـم يقترفـن ذنبـاً إلا الأمـل بحيـاة أكثـر إنسـانية، يقفـن فـي مواجهـة مـن باعـوا أرواحهـم للشـيطان، فصـار قائدهـم المُطـاع، ولنيـل رضـاه جعلـوا هـذه الزهـرات قربانـاً وتضحيـةً لينـال مجـده ويتربـع علـى عـرش زُيـن برؤوسـهم ..

رأى القائـد العيـون الشـاخصة، وأحـس ببـوادر انهـزام تلـوح فـي الأفـق .. صـرخ فـي جنـوده المتحلقيـن حـول جسـد صديقهـم المضرج بدمائـه، قاتـلاً روح الهزيمـة والصدمـة التـي تملكتهـم ..

- فلتعودوا إلى أماكنكم بهدوء.

جاءه الجواب من أحد العساكر المكلومين:

- لقد لقى حتفه، انتهت حياته قبل أن تبدأ.

قال آخر متمتماً من بين دموعه:

- لقـد كان يحلـم بالعـودة لعروسـه التـي يعشـق، لقـد حُـدد موعـد زفافهمـا عنـد أول عـودة للديـار..

قال ثالث مسترسلاً دون وعي:

– لقد وُسمنا بالموت على جباهنا، كما توسم البهائم المنساقة لحتفها دون إرادة منها أو وعى..

ثار القائد غاضباً، وصاح فيهم:

– ما هذه الروح الانهزامية؟ ماذا تركتم للنساء والأطفال الواجب علينا حمايتهم؟

ثارت داخلهم روح المسئولية، وأحسوا بالخجل ليأسهم، فما كان منهم إلا أن أدوا التحية العسكرية، متجهين إلى نقاط تمركزهم كما كانوا من قبل، دون أي تردد أو خوف، غير مدركين لظلال الموت المحلقة من حولهم في كل مكان، منتظرة أن تحصد أرواح الجميع بلا رحمة.

ساعات يستعرُ فيها القتال بلا توقف، الحصار يضيق عليهم أكثر فأكثر، كما المعلق من عنقه بحبل لا يستطيع الفكاك منه، أرواح تُزهق بلا سبب يعلمونه، إنها طاعة القادة، يقبعون خلف مكاتبهم، كل ما حولهم يصرخ بالترف، يدفعون بهم إلى جحيم مستعر تتطاير حممه فتحصد أرواحهم، كل ما حولهم يصرح بالفناء، فالجميع هالك لا محالة.

لحظات من الصمت المريب، يتبعه صوت طائرات تحلق في السماء، يصيب صوتها الجميع بالرعب، حتى النساء والأطفال لقابعين خلف جدران بيوتهم النصف مهدمه من القصف السابق، خرجوا فزعين مخافة أن تتحول جدران بيوتهم إلى مقابر تجثم فوق أجسادهم المنهكة حد الموت..

الكل معلقة عيونهم بالسماء، ينتظرون سهام الموت التي

ستمطر فتحصد أرواحهم، ترى هذه الأم تتوارى خلف جدار مُهدم تحتضن بناتها الصغار، لا تملك لهم من الدنيا إلا الدعاء، وبعض من دموع لم يجف نبعها بعد، يرتفع أزيز الموت أكثر مع انخفاض طيور الظلام التي تحمله، سيل من القنابل يتدفق منها، تهبط وكأنها الألعاب النارية، تنشر في سماء المدينة دخاناً أبيض اللون كثيفاً، ومع هبوطه، تتعالى الصرخات مع ذوبان كل شيء يلمسه هذا الضباب الحارق، كل شيء حي، يركض الجميع من الألم الذي يفوق طاقه البشر، فتتساقط جلودهم ولحومهم، يتحولون إلى أشباه هياكل عظمية تحت زخات الجحيم المتساقطة من حولهم..

لحظات تمر وكأنها الدهر، يتساقط البشر كالذباب، حتى الشيطان يقف جاحظ العينين من هول ما يرى، يغشى الضباب كل شيء، تتداخل أمامي الصور والألوان والأشخاص وبقايا الأشجار والزروع، تختلط بقايا الكائنات الحية مع الجمادات، كومات من البقايا تتناثر في كل مكان، ثم لا شيء بعد، إنه السكون الأبدي، سكون القبور الجماعية..

أراهم مجتمعين على ضفاف نهر ما، تحيط به الأشجار بنمط فريد، أنظر إليه فأرى باطنه وكأنه يسبح في السماء، بعض الكيانات النورانية تفتح لهم أبواباً من ذهب تتلألأ من حولهم، ينظرون إلى بعضهم البعض غير مدركين لما يحدث، تعلو وجوههم نظرة من الذهول، أهي النهاية التي طالما تُقنا إليها؟!

أهو الفوز العظيم الذي وُعدنا؟!

تتهلل أساريرهم عندما تُقبل عليهم هذه الأجسام المشعة بالنور، يتعرفون عليهم، إنهم بعض من زملائهم الذين سبقوهم

للحياة، بعض الأهل والأصدقاء الذين تاقوا إليهم منذ سنوات، الكل يستقبلهم على ضفاف الجنة، فرحين بحضورهم ونهاية آلامهم..

أنا أيضاً أرى أبي قادماً من بعيد، يمد يده ليمسك بيدي ونعبرُ للضفة الأخرى من هذا العالم الفريد، أخطو وكأن الأرض من قوارير من الماس، يا لروعة هذا المكان!

ليتني هنا منذ الأزل، فلتضمني إليك أبي، فقد اشتقتكَ أكثر مما تتخيل!!

«الألم الثامن»

« قربان »

تقفُ لتلتقط أنفاسها اللاهثة، تتلفت حولها في فزع، تحيطُ بها ظلمة غريبة تملؤها خيالات مخيفة، تغزوها برودة تجمد الدم في عروقها، أصوات صاخبة يتخللها ما يشبه الفحيح، يقشعرُ بدنها رعباً، تتعثر في هروبها المجنون من صوتٍ شيطاني يبعثُ القشعريرة في كل خلاياها، تشعر به يطوقها كما تلتف الأفعى حول فريستها؛ لتسلب منها الحياة ..

- فلتكفي عن الهرب، لا تخافي، واقتربي ها هنا..

- من أنتَ، وماذا تريد مني؟؟ فلتتركني وشأني.

- أنا هو قدركِ الذي لا فكاك منه، فكفي عن المحاولة..

صوت ضحكات مقززة يترددُ صداها داخل عقلها، تحس بالخَدرِ في كل خلايا جسدها، ثقلٌ كالجبالِ يجثمُ فوق صدرها، يقتات على روحها، تذهب محاولاتها للتحرر من نومها أدراج الرياح، تحاول الصراخ مستنجدةً، فلا يخرجُ صراخها خارج صدرها، وكأنما حُبس صوتها داخل بئرٍ عميقة لا قرار لها..

يصدحُ أذان الفجر في مكبراتِ المسجد المجاور لبيتها، يتخلل حواسها، تحس بخدَرها يختفي تدريجياً، تتسلل الحياة عائدةً لجسدها المسجى على فراشها ببطء شديد، تجلس منتفضة بعد تحررها يملؤها الرعب .. تنظر لوجهها في المرآة الضخمة المقابلة لسريرها، فترى الدموع تغسل وجهها، ثيابها مهلهلة، تفزع عند رؤية آثار بلون الشر تصبغ يديها وقدميها، كأنها قيود فولاذية كانت تثبتها لفراشها، يتردد داخلها صدى هذه الضحكات

الشـيطانية الخبيثـة، يخيـل إليهـا أنهـا تـرى انعـكاس ظـل ضخـم يقـف بجانبهـا، يظهـر جليـاً علـى صفحـة مرآتهـا، تتلفـت حولهـا فزعـةً، يخيـل إليهـا أنهـا تسـمع صـوت ضحكـة سـاخرة بجانـب أذنهـا اليسـرى، فتقفـز مـن سـريرها لخـارج الغرفـة وكأن شـياطين الجحيـم تطاردهـا..

تسـرع هاربـةً لأحضـان جدتهـا الحبيبـة، تلـوذ بالأمـان السـاكن بيـن ذراعيهـا، تقـص عليهـا تفاصيـل كوابيسـها التـي تتكـرر للمـرة الألـف وتأبـى أن تنتهـي، فتضمهـا إليهـا بخوف، تتمنـى لـو تسـتطيع حمايتهـا، تقـاوم دموعهـا الحبيبـة التـي أوشـكت علـى التحـرر، رعـب يمـلأ قلبهـا، فهـا هـي تـرى تكـرار نفـس مأسـاتها القديمـة التـي انتهـت بكونهـا حبيسـة جسـد عاجـز، يكبلهـا بفراشـها حتـى المـوت، أخـذت بـرأس حفيدتهـا بيـن أحضانهـا، وبـدأت تتمتـم بآيـات الرقيـة وهـي تمسِّـد شـعرها بيديـن ترتعشـان خوفـاً مـن القـادم المجهـول ..

أيـام تمضـي وحالهـا يتدهـور مـن سـيء إلـى أسـوأ، مـلأت الخـدوش والكدمـات جسـدها، وكأنمـا وقعـت بيـن براثـن كتيبـة تعذيـب فـي أحـد السـجون النازيـة، أصبـح همهـا الشـاغل هـو كيـف تهـرب مـن النـوم ومـا تلاقيـه فيـه مـن أهـوال، حتـى اصطبغـت عيناهـا بلـون الدمـاء، تراهـا جالسـةً تتمتـم تـارة وتبكـي تـارة أخـرى، تلتـف أسـرتها حولهـا باكيـن منتحبيـن لأجـل مـا حـل بابنتهـم، هـذه الزهـرة الجميلـة التـي تتسـرب حياتهـا مـن بيـن أيديهـم، وهـم عاجـزون عـن مسـاعدتها، يشـعرون بالعجـز وقلـة الحيلـة، يظنـون أنهـا فقـدت عقلهـا، ولـم يتخيلـوا ولـو للحظـة مـا يـدور مـن حولهـم، وكيـف تطـوف هـذه الكيانـات المرعبـة وتنتشـر فـي أرجـاء المنـزل، فـلا يراهـم ولا يسـمعهم سـواها وحدهـا، فقـد أحاطـوا بهـا كمـا السـوار بالمعصـم،

وكأنهم كتيبة من الحراس خصصت لأجلها وحدها، ينظرون إليها بعيون تُجمد أوصالها، يهلكها حضورهم المقيت، فتغلق عيونها هرباً من رؤيتهم، لتنزلق إلى جحيم النوم مرة أخرى، وتستمر المعاناة ..

طرق والدها كل الأبواب حتى غير المشروعة، باحثاً عن أمل في النجاة، باءت كل محاولاته بالفشل، لجأ للشيوخ والدجالين، بلا فائدة، فلا قِبل لهم بما يحدث، لاذوا بالفرار ناجين بأنفسهم، فكلما حاول أحدهم الاقتراب، اشتعلت النيران مدمرةً كل شيء، حتى صار البيتُ بعروسه الملعونة حديث أهل القرية والقرى المجاورة ومجال حكاياهم..

دخل خطيبها لغرفة الجدة، فرآها تكاد تختفي بين أحضانها التي أصبحت ملاذها، تحاول حمايتها بشتى الطرق التي سمعت بها يوماً، تتخذ من آيات القرآن درعاً لحمايتها ما استطاعت، تغزو الدموع عينيه لحالها، فقد تحولت فتنتها التي أسرَته – في لحظات – إلى شحوب ووجوم، يحاول التحدث إليها ومواساتها، فلا تلتفت إليه، وكأنها في كون آخر لا يسكنه بشر، كم يتمزق قلبه لحالها!

قرر الذود عنها بحياته، فهي عشقه الأبدي، ولن يتنازل عنها لأي مخلوق ولو كان الشيطان ذاته..

خرج إلى حيث يجلس أبوها مسرعاً، ليجده بين مجموعة من الشيوخ يقص عليهم حال ابنته؛ عل منهم من يملك لها نفعاً، أخبره بانفعال أنه قد قرر إتمام زواجه بها يوم الجمعة القادم، وأن عليه مساعدته في التجهيز ليوم عرسه بشكل لائق، انتفض الحاضرون جميعاً معترضين ومحذرين من مغبه ما يريد، فهو

بذلـك يلقـي بنفسـه إلـى التهلكـة لا محالـة، فـلا قِبـل لـه ولا لهـم بمن يؤذيهـا، أصـر منفعـلاً وضاربـاً بتحذيراتهـم عـرض الحائـط، فسـيتم زواجـه بعـد ثلاثـة أيـام، وليذهـب مـن يحـاول منعـه للجحيـم، قالهـا وهـو يـدارى خدوشـاً داميـة محفـورة بعمـق علـى يديـه، شـاهدةً علـى نصيبـه مـن المعانـاة التـي لا يعلـم بهـا أحـد سـواه..

❖❖❖

أفاقـت جدتهـا علـى أصـوات همهمـات متألمـة تخـرج مـن حفيدتهـا النائمـة بجوارهـا، وكأنهـا تُعـذب، حاولـت أن تهـز جسـدها لتفيـق مـن نومهـا، لكـن بمجـرد أن مـدت يدهـا نحـو كتفهـا، رأت سـبب عذابهـا، هذا الشـكل الغريـب الموشـوم علـى كتفهـا، والـذي ادعـت منـذ رأتـه عنـد ولادتهـا أنـه مجـرد وحمـة عاديـة، رأت لونـه يتحـول للـون الأحمـر وكأنـه يشـتعل بنـار مـن جحيـم، فتأكـدت أن الوقـت قـد حـان، وأن مأسـاة حفيدتهـا سـتكتمل لا محالـة، امتـلأت عيناهـا بالدمـوع هلعـاً مـن هـذا الإرث الملعـون..

تتذكـر حياتهـا بعـد هروبهـا وأمهـا مـن بيـت أبيهـا الملعـون، وكيـف حاولـت العمـر كلـه طمـس هويتـه، فادعـت أمهـا أن زوجهـا مـات منـذ سـنوات طويلـة، وعاشـتا فـي كنـف أهـل أمهـا؛ هربـاً مـن هـذا الـذي بـاع آخرتـه بثمـن بخـس، واتخـذ الشـيطان حليفـاً، مـن كان سـبباً فـي دمـار كل مـن يقتـرب منـه بأفعالـه الشـنيعة، التـي دفـع ثمنهـا المئـات مـن ضحايـاه ممـن غرتهـم الأمانـي، وحيـن جـاء دوره ليدفـع ضريبـة كفـره، وحـدد الملعـون الثمـن، حيـاة ابنتـه، فقـد اختارهـا خليلـة، قـرر أن يسـتولي علـى روحهـا، فمـا كان مـن والدهـا المخبـول

إلا أن عقد اتفاقاً جديداً مع الشيطان ليرضى أن يتركها، ليكون الثمن، حياة أول حفيدة له من ابنته هذه، وليساعده في تسخير المئات من البشر الخاطئين عبيداً له ولشهواتهم، وقد كان وعده دماراً على الجميع ، فها هي قعيدة فراشها منذ سنوات، كجزء من الانتقام بعد موت أبيها الذي كان عبرةً لمن تسول له نفسه، وها قد جاء دور حفيدتها البريئة في هذه المعاهدة المشئومة.

أفاقت القرية عن بكرة أبيها على فاجعة مدوية، وامتلأت الأرجاء بصراخ يدوي ممتزجاً برعب لم يروه أبداً من قبل، ففي ساحة القرية، وعلى هذه الشجرة العتيقة التي تتوسطها، وجدوه مصلوباً على جزعها الضخم، عارياً كما ولدته أمه، مشوه المعالم، وكأن سرية من الجحيم قامت بتعذيبه، إنه العريس المنتظر الذي أصبح عبرةً لمن يحاول مقاومة الشيطان..

في نفس اللحظات، وفي بيت الفتاة، بدأت المأساة تكتمل ...

مأساة لا يعلم حقيقتها سوى الجدة القعيدة، الوحيدة التي تعلم حقيقة عقد والدها مع الشيطان، الذي قرر أن يسترد عروسه التي وشمها يوم مولدها بوشم على كتفها، هذا الوشم الذي يتوهج الآن، في هذه اللحظة، مستدعياً جيشاً من أعوانه؛ ليحملوا عروسه إليه .. فقد حان الوقت..

وفي المنزل المحاط بالنيران، تكوم كل أفراد الأسرة في ركن غرفة الجدة، ينظرون بهلع لما يحدث، فها هي ابنتهم فاقدةً وعيها، سابحةً في الهواء، ومن حولها تتشكلُ كيانات يشيب من

هـول منظرهـا الولـدان، يـدورون حولهـا وكأنهـم طـوق مـن نـار جهنـم، وكلمـا توهـج وشـمها، تضاعـف دورانهـم حتـى فقـد الجميـع وعيهـم مـن هـول مـا يحـدث، وعندمـا أفاقـوا لـم يجـدوا مـن ابنتهـم أثـراً سـوى خاتـم خطبتهـا ملقـى علـى أرض الغرفـة وسـط الرمـاد.

«الألم التاسع»

« في ظل الشجرة »

فـي ظـل الشـجرة، تقـف شـامخة رغـم الوهـن الـذي اجتـاح عظامها المُسـنة، تتزيـن بلباسـها الحريـري الموشّـى بنقـوش سـاحرة، تنطـق ألوانـه بحـب الحيـاة، يكلـل هامتهـا وشـاحها الأبيـض بنقـاء الثلـج، وقلبهـا العامـر بحـب هـذا التـراب الطيـب، تحمـل فـي يدهـا فتيـلاً يملـؤه الزيـت المبـارك، تتجـه صاعـدةً نحو شـجرة الخـروب المباركة، تلقـي السـلام علـى عيسـى المسـيح وصَحبـه، تراهـم متكئيـن حولـه، متحلقيـن، يتلمسـون بعـض الراحـة فـي طريـق رحلتهـم المقدسـة..

تغشـي الدمـوع عينيهـا المتغضنتيـن، تنظـر بشـوق لتلـك القبـة المتلألئـة كألـف شـمس تشـرق وسـط الظـلام، تشـتاق روحهـا السـجود فـي رحـاب مسـرى النبـي الخاتـم، تتذكـر سـنوات خلـت، يومـاً تتزيـن فيــه بأحلــى الثيــاب، تتأبــط ذراع زوجهــا متجهــةً معــه إلــى صــلاة الجمعـة فـي رحـاب القبـة الذهبيـة المباركـة .. سـنوات مـرت وبـات الأمـر دربـاً مـن الحنيـن، تخنقـه أسـوار مـن التعنـت والقهـر، تتلحـف بسـتار مـن التطـور يخفـي داخلـه كل نواقـص البشـر منـذ النـزول الأول حتــى تحيــن النفخــة الكبــرى.

تنـادي أحفادهـا، كبـاراً وصغـاراً، يُقدمـون نحوهـا، يعلـو الغبـار المختلـط بالدمـوع صفحـة الوجـوه الأبيـة، تنطـق العيـون النازفـة قهـراً بالتحـدي، ينتفـض الأمـل بداخلهـا، تتخـذ مـن أنقـاض منزلهـا المُهـدم بيـد الظُلـم، لبِنـات لبنـاءٍ أكثـر قـوة، تسـكن إليـه روحهـا الباسـلة، تـدس يدهـا نافـرة العـروقِ بجيـوب جلبابهـا الواسـعة، تخرج قطـع الحلـوى، تهبهـا لأطفالهـا، تشـير لهـم بالجلـوس حولهـا فـي ظـل الشـجرة المباركـة، تبثهـم بعـض مـن حكاياهـا، تسـتهل كلماتهـا بـأذان

يصدح من القدس القريب، فتتردد الإقامة بين جنباته، رُسلٌ تصطف، كوكب دُري يسطع أمامهم وإمامهم، سنوات تمر كالبرق تخطف الأمجاد، عروس سباها قرصان أعور، كبَّلها بخلخال من فُرقة، وأحاطها بسوار من صمت مشين ..

تشرئب الأعناق ناظرةً نحو هلال الأربعين الشامخ بين البيوت الصامدة، بيضاء لذة للناظرين، ترى أسراباً من الجراد المغطى بالسواد، يتوارى من خلف حُجب، يخرق كل سفينة، ينقض كل غزل، ويأسر في ظلمات جُبه كل حر، حتى الأطفال بلباسهم القصير، ما سلموا بطشه، طيور الظلام ترمي بحجارة من دمار، تهدم منزلنا، ومنزل الجيران، ومدرسة الحي، وصالة تجمعنا حيث تُدق دفوف الفرحة، وتُتلى الآيات لفراق الأحباب، ضباب من غاز تلقيه يُسيل دموعنا، يحرق حناجر تعالت بالتهليل والتكبير، يتعالى من حولنا دوي كرعد يزأر غاضباً، فتتعالى صيحاتنا بالتكبير أكثر، تنادي الجدة أحفادها ملتاعة:

- فلتحتموا من بطش الضعفاء، بجوار ملك الملوك ..

يتساءلون:

- من لنا اليوم جدتي وفي كل يوم نحن نهون؟ أطفال وشيوخ، نساء كن يوماً كلؤلؤ مكنون، أصبحن في مهب ريح عاصف، لا يجدن من يكفكف دمع الفقد، واليوم بالخوف والقهر (يتلحفون) ..

- هلموا أبناء قلبي، لنزرع أشجار الزيتون بين أنقاض الحياة

المغتالة قهراً، هلموا لتجمعوا من حطام بيوتنا، أحجاراً نبني بها وطناً، نرصف بها درباً، نقذف بها عدواً لُداً ..

تَراهـم يحملـون صغارهـا للضيـاع، يلقـون بهـم بيـن غيابـات جُـب مظلـم، يقتلـون فـي قلوبهـم كل أخضـر، ويزرعـون روح البطولـة لـو يعلمـون..

تنادي الجدة:

- الصبـر .. الصبـر أبنائـي، فموعدنـا الصبـح، "أليـس الصبـح بقريـب".

تكلـل البسـمة وجوهـاً أرهقتهـا المآسـي، يتعاظـم بيـن ربـوع أرواحهـم قبـس مـن روح القـدس، يُبعـث مـن بيـن ركام الأرض ألـف صـلاح الديـن لا يقهـرون ..

يتلاشـى صـوت الجـدة بيـن أصـوات المدرعـات المتحلقـة حـول الحـي الباسـل، مروحيـة تطـوف فـوق الشـجرة، تثيـر غبـار الأرض الطيبـة، طـوق يسلب الحيـاة من بين ربـوع بيوتنـا، لا طاقـة، لا مـاء، لا عِلـم، لا أهـل، لا شـفقة، لا إنسـانية، لا حيـاة لمـن تنـادي جدتـي مـنَ إخوتهـا طالبـةً العـون، فيردمـون رؤوسـهم برمـال الصمـت..

تبعـث شـمس الصبـاح بأشـعتها، لتشـرق ألـف شـمس بيـن ربـوع القـدس الحبيـب، ينطفـئ سـراج الجـدة الزيتـي، تتلاشـى الحلـوى بيـن أيـدي أطفالهـا، يخـرج أبناؤهـا سـاعين لزفـرة حريـة تحيـي قلوبهـم، يمـرون بطريـق الشـجرة، يلقـون السـلام علـى قبـور الأحباب، يُسـلمون علـى جدتهـم التـي واراهـا التـراب فـي قصـف غاشـم منـذ عقـود، فتـرد روحهـا عليهـم السـلام ...

«الألم العاشر»

« انتقام »

تجلس منزوية في ركنٍ قَصِي، متخذةً وضع الجنين، تَلفُ يديها حول جسدها كمن يعانق نفسه خوفاً ورهبة، جسدها النحيل يشع نقاءً ببشرتها التي تشبه بشرة الأطفال، وكأنها تعكس هذا الضوء الشاحب الساقط عليها من أعلى هذه الجدران الصخرية الغريبة التي تحتجزها، تتلفت يميناً ويساراً، فترى جدراناً لا نهاية لها ولا بداية، وكأنها متاهة متشعبة، تتيه فيها منذ أيام لا تعلم عددها، حتى فقدت عزمها واستسلمت لمصيرها القاتم، تغمض عينيها بقوة، تتمنى لو تختفي هذه المخلوقة البشعة، أن تصمت هذه الهمهمات التي تخترق عقلها وروحها، تزلزلها فتجعلها تهرب داخل حدودها أكثر، تتمنى أن تُخرس هذه المجنونة، تتخيل نفسها تنقض عليها وتقتلها بيديها العاريتين، إنها تحوم من حولها كذئبٍ مفترس يحاصر فريسته، تهشم مقاومتها الضعيفة، فتجبرها على الهروب منها لأبعد نقطة ممكنة، وكلما حاولت الهرب أكثر اخترقت حصونها أكثر، إنها أكثر أعدائها شراسة وأكثرهم خِسة، لا تترك فرصة إلا وتتهمها بالقتل، وبأنها السبب في موت أحبابها، وأنها ستنتقم منها لا محالة، وها هي تنتهز الفرصة لتنقض عليها وتهلكها، تنتقم منها لخسارة طالتها أكثر من الجميع، إنها تقتلها ببطء وتلذذ، لتدفن بقاياها داخل سراديب كهفها المظلم..

يكاد نور الشمس ينطق بالسعادة، تنثر خطوطها المبهجة من حولي في كل مكان، أتأمل حياتي فيزداد شكري لله، أنظر لهذا الحلم المتجسد إلى جانبي على فراشي الوثير، أتطلع إليه بعينيّ عاشقة متيمة، أتأمل تفاصيل وجهه المنحوتة كتماثيل الآلهة الإغريقية، هذه الذقن التي تنطق بالكبرياء، حاجبيه

المقطبين حتى أثناء نومه، وكأنه يفكر في حل لنهاية الكون، أمد يدي أتلمس أرنبة أنفه برقة، يقطع تخيلاتي أصوات طرقات مرتفعة على باب غرفتي، وإذا بولدي التوأم يهرعان إلى الداخل، غير منتظرين إذناً بالدخول، يطالباننا بالاستيقاظ سريعاً حتى نستعد للخروج لرحلتنا كما خططنا، فسنذهب اليوم في رحلة إلى لساحل الشمالي، طال انتظارهما لها على وعد بأن تتم بعد انتهاء اختباراتهما.

استيقظ حبيبي من نومه متظاهراً بالغضب وقام يعدو خلفهما ضاحكاً .. يا لجمال قدري! فقد رزقني الله بمن أحب زوجاً، وبنسختين متطابقتين منه، هما فلذتا كبدي، فليحفظهم الله جميعاً لأجلي..

❖❖❖

سنوات خمس قد مرت منذ زواجنا، عشت معها أجمل اللحظات، فهي الجنة التي طالما تقت لسكناها، وقد تحقق حلمي، أو للدقة، تحققت معظم أحلامي، لا ينقصني سوى توقي الشديد لطفل منها، يشبه تفاصيلها الغالية. بعد مرور بضع سنوات اكتفيت بها، لكني أراها تذبل عاماً بعد عام في انتظار اكتمال حلمها بولد يشبهني، على حد قولها، لكنها أقدار الله، رحلة من الشقاء بين ممرات المستشفيات، نحاول بشتى الطرق، ولم يكتب لنا الله رزقاً بذرية تسعدنا بعد، وها نحن نجلس خارج مكتب الطبيب المختص، ننتظر لنعرف نتيجة العملية الأخيرة التي أجريناها منذ أسابيع قليلة، فاللهم فلاحاً ورزقاً من عندك! تتحدث بعصبية بالغة، موجهه حديثها لزوجها وحبيبها، تعاتبه على تهاونه وتساهله مع ولديهما، ينظر إليها وتتعالى ضحكاته، لتسكت مأسورة اللب به كالعادة، ثم تتمالك نفسها صارخة به:

- ألن تكف عن تدليلهما حد الفساد؟

- أين هو الفساد في الأمر؟ إنهما حبيبا قلبي وحلمنا الذي تحقق بعد عناء، فلابد أن أدللهما وأكثر..

- لابد لكل شيء من حدود، حتى الدلال، لن يخرجا للنزهة إلا بعد إتمام واجباتهما كاملة..

- تمام يا افندم، حضرتك القائد ونحن عساكر في سريتك. (رد عليها مازحاً، فنظرت له وانفجرت ضاحكة).

- اللهم هوِّن عليّ، فقد رزقتني بثلاث نسخ مجنونة أعيش معها..

- هيا يا شباب.. فلتسرعوا لنبدأ سفرنا بعون اللّه.

نزلنا مسرعين إلى السيارة، كل يحمل حقيبته، بدأنا الرحلة مع بداية النهار، قطعنا نصف الطريق إلى الساحل الشمالي، واقترحت عليهم أن نقف للاستراحة لبعض الوقت، جادلني زوجي والأولاد قليلًا، فقد كانوا يرفضون التوقف، لكنني أصررت، مرت ساعة وعدنا لنستكمل رحلتنا، شكى زوجي من صداع مزعج، فطلبت منه أن أقود السيارة بدلاً منه، لينال قسطاً من الراحة، فوافق سريعاً، أسند رأسه على ظهر المقعد، واغمض عينيه ليغرق في النوم بعد لحظات، وكذلك نام الأولاد في المقعد الخلفي، فأخذت أتطلع لهم للحظات، وانتابني شعور حارق بقلبي، استدرت دامعة لأنظر إلى الطريق أمامي لأفاجأ بشاحنة تطير باتجاهنا

بسرعة مجنونة، ولم تفلح كل محاولاتي لتفاديها، لتصطدم بنا، وتنقلب سيارتنا مرات عدة، لتخترق صرخات زوجي وأولادي فؤادي، وتظلم الدنيا كلها أمامي...

❖❖❖

أصـوات مزعجـة لسـيارات إسـعاف ودفـاع مدنـي تختـرق وعيهـا، صرخـات تـدوي، لقـد مـات الرجـل والطفـلان، المـرأة علاماتهـا الحيويـة ضعيفـة جـداً، لكنهـا لا تـزال علـى قيـد الحيـاة..

صوت داخلها يتردد مع تردد أنفاسها المحتضرة:

- لقد قتلتهم، أنا السبب في موتهم، لقد قتلت أولادي وزوجي!

لـم تعـد للحيـاة منـذ تلـك اللحظـة، فقـد انسـحبت لهـذا الكهـف المظلـم، تعيـش المشـهد نفسـه مـرات ومـرات، تتوالـى مشـاهد حياتهـا السـابقة، ملامـح حبيبهـا، وملامـح ملاكيهـا البريئيـن، حلـم العمـر الـذي اغتالتـه يـد الأقـدار فـي لحظـات معـدودة، اختبارهـا القاتـل الـذي رسـبت فيـه وبجدارة.. بـرأ جسـدها مـن جراحـه، لكـن روحهـا بقيت حبيسـة كهـف الذنـب المظلـم مـع جلادهـا، نسـخة منهـا نفسـها، تتفنـن منـذ سـنوات فـي تعذيبهـا، حتـى توقهـا للمـوت لا تـدع لهـا إليـه سـبيلاً.

«الألم الحادي عشر»

« الوافد الجديد »

تتـردد نغمـة الاتصـال الخـاص بهاتفـي المحمـول، فأسـمعها بعيدة وكأنهـا قادمـة مـن عالـم آخـر، لا أسـتطيع الحركـة وكأننـي مقيـد بأغـلال مـن سـعير، لا أسـتطيع فتـح جفونـي المثقلـة، كل عظمـة فـي جسـدي تئـن ألمـاً، لا أدري مـا حـلَّ بـي، أحـاول أن أسـتجمع أفـكاري، أو أفتـح عينـي قليـلاً لأرى أيـن أنـا، بـلا جـدوى..

تتضـح الرؤيـة قليـلاً، أرى وجوهًـا مشوشـة تبعـث الرعـب فـي نفسـي، وأصواتـاً صاخبـة تتناقـش بانفعـال كأنهـا تحـدد مصيـر الكـون، أتلفـت حولـي علنـي أدرك أيـن أكـون، تتـردد الأفـكار برأسـي، أخالنـي فـي أحـد أحلامـي البائسـة، ولكـن أي حلـم هـذا الـذي أعلـم فيـه أنـي لا أحلـم؟ أشـعر بجسـدي وأفـكاري، وأتناقـش مـع نفسـي بمنتهـى الجديـة..

غرفـة تضيـق جدرانهـا علـى روحـي رغـم اتسـاعها، وكأنهـا تتعمد تحطيـم أضلعـي، صـور ونقـوش مرسـومة علـى جدرانهـا الباهتـة بدقـة بالغـة، حتـى ليخيـل لـي أنهـا لأشـخاص تـدب الحيـاة فـي أجسـادهم، وجـوه غريبـة تعتلـي أجسـاداً أغـرب، وكأنهـا وجـوه بشـرية مقيتـة تعلـو أجسـاد غوريـلات ضخمـة، مظهرهـم الغريـب يبعـث فـي نفسـي الرعـب، أركـز فيهـم أكثـر وأكثـر، لا بـد أننـي قـد جننـت، فأنـا أراهـم يلتفتـون يمينـاً ويسـاراً، هامسـين لبعضهـم البعـض، ناظريـن نحـوي، وكأنهـم يُسـرون لبعضهـم بشـيء يتعلـق بـي وحـدي، أحـاول أن أتبيـن كلماتهـم، فلـم أفهـم منهـا سـوى جملـة واحـدة "إنـه الوافـد الجديـد".

كنت أقف أمام باب الغرفة المخيف، الموجود بشقتي الجديدة، يغلبني فضولي لأفتحه، وأرى ما يخفيه عني هذا البائع المريب الذي باعني إياها، حتى يصر على ألا أقترب أبداً من هذا الباب الضخم، الذي يحتل نصف الجدار في أقصى الشقة، تتعلق عيناي به وكأنه يناديني، أحس بأنفاسي ثقيلة حين أمر بجواره، شهر كامل مر منذ انتقالي البائس هنا، أوشكت أن أصاب فيه بالجنون، أصوات تتعالى كلما أغلقت عيوني، أضواء غريبة تتسلل في الليل من أسفل هذا الباب الغريب، بنقوشه المرعبة، وثعبانيه المتواجهين، وكأنهما يقفان كحارسين عليه، لسان حالهما ينطق: "ها نحن هنا نقف بالمرصاد لمن تسول له نفسه الاقتراب"، كم من مرة مررت بالقرب من هذا الباب وخيل لي أنهما يتحركان، أسمع فحيحهما، يجمد الدماء السارية بعروقي، فأفر مسرعاً كمن تطارده وحوش الكون تريد أن تفتك به..

أتذكر آخر ما فعلته حين استجمعت كل شجاعتي، ووقفت أتأمل نقوش الباب القديم الغريبة، حتى أنني مددت يدي لألمسها، أحسست بها تنبض بالحياة تحت يدي، حتى أنني أحسست بنبضات تطرق تحت يدي، لا أكاد أجزم أكان للباب قلب ينبض، أم أن قلبي من هول ما يحس به قد تعالت دقاته لتصم أذني، اقتربت أكثر لأنظر في وجه الثعبانين، خيل لي أنهما يبادلانني النظر والتحديق، وفجأة اتسعت ابتسامة ماكرة ارتسمت على فم الثعبان الأيمن، وفي لمح البصر، انفصل عن الباب ليطل عليّ بطول يفوق الخمسة أمتار، وكأنه مارد جني يتعاظم حجمه أمامي، صرخت بفزع، وآخر ما أتذكره أنه التف حول جسدي يعتصرني بشدة، حتى غبت عن الوعي، وربما عن الحياة كلها في لحظات..

ضوء خافت يزداد لمعانه شيئًا فشيئاً، وتزداد معه قدرتي على الرؤية داخل عالم الغرفة المجنون، أحس وكأن جسدي قد تحول لقطعة من جليد أو حديد مطروق، تختفي معالم الغرفة، فلم أعد أراها، أغيب عن وعيي ثانية، أسمع صوت رنين هاتفي المحمول بنغمته المميزة مرة أخرى، يُضاء نور ساطع، لحظات أحاول فيها التركيز، أرى المشهد يتبدل فأرى خارج الغرفة، وها هو هذا الرجل المريب الذي باعني الشقة يقف على بعد خطوات مني، لكن لِم أراه وقد صار كالعملاق يطل عليّ من ارتفاع شاهق؟!

أراه يلتقط هاتفي، يفتحه ببطء، يخرج شريحته ويحطمها، ثم يلتفت إليّ ضاحكاً بجنون، يمد يده إلى باب الغرفة يلمسه فأحس بها على وجهي، يصيبني الذهول، يمسك بمرآة أثرية كانت تقبع هناك على إحدى الطاولات، يوجهها نحوي، أمعن النظر فيها، أتأمل صورة الباب التي تغيرت ملامحه عما اعتدته، هناك شيء مختلف فيها، لمن هذا الوجه الذي احتل منتصف الباب؟! ترمش عيناي في فزع، أحاول تحريك يدي، يصيبني الرعب حين أدرك أنني قد تحولت لجزء من نقوش الباب الضخم لغرفة الأسرار، بوجه ممسوخ مخيف، وأطراف تحولت لثعبانين جديدين ينتظران وافداً جديداً آخر، لينضم لنقوش باب الغرفة النابضة بالحياة..

«الألم الثاني عشر»

« أضغاث آلام »

«لُعبة الأقدار»

ترغمنـا الحيـاة علـى الخـوض فـي مسـتنقعات الشـقاء، تنهـك أرواحنـا محـاولات فاشـلة للنجـاة، حُلـم يراودنـا للعبـور إلـى الجانـب الآخـر، حيـث تلـوح فـي الأفـق الفرصـة لنتطهـر ممـا علـق بقلوبنـا مـن دنـس التجـارب، تُثقـل كاهلنـا خطايـا حُملنـا أوزارهـا دون ذنـب اقترفنـاه، سـوى أننـا حلمنـا يومـاً بالسـعادة، حروبـاً خضناهـا بـلا عتـاد، لنتجـرع الهزيمـة علـى يـد جلادينـا، وفـي بعـض الأحيـان علـى يـد مـن ملكـوا الـروح والوجـدان..

يقـف هنـاك فـي أقصـى يميـن الممـر أمـام غرفتهـا، يتـوارى خلـف بابهـا نصـف المفتـوح، تتسـابق دموعـه فـي السـقوط علـى وجهـه وكأن فيضانـاً مـن المشـاعر قـد تدفـق وفـاض دون إرادة منـه، دمـوع تحمـل بيـن طياتهـا آلاف المشـاعر، حنيـن يسـكنه، لـم يتحـرر منـه يومـاً، حـزن بثقـل الجبـال، وعشـق لـم يتوقـف تدفـق نبعـه طـوال عشـر سـنوات وتزيـد..

❖❖❖

يتأمـل ملامحهـا الحبيبـة التـي فرضـت عليهـا اسـمها، فهـي "حبيبة الحبيبـة" كمـا اعتـاد أن يناديهـا فـي الأيـام الخوالـي، ينقبـض قلبـه بغصـة تؤلمـه؛ لمـا آل إليـه حالهـا، سـنوات مـرت تخيـل فيهـا أنهـا تعيـش السـعادة التـي تمنـى أن يهبهـا إياهـا، لقـد فـر بقلبـه مـن حكـم جائـر بالفـراق، آمـلاً أن يكـون ألمـه ثمنـاً لسـعادة تجنيهـا بعيـداً عنـه..

يراهـا اليـوم شـبحاً يهيـم فـي عالـم خيالـي، يتأمـل عيونهـا التـي حـال لـون ''فسـتقها'' وغـرق بيـن شـلاّلات الدمـوع المتسـاقطة بـلا توقـف، تحفـر طريقهـا علـى خـدود تحـول لـون حمرتهـا إلـى شـحوب، تراهـا فتحسـبها جسـداً بـلا روح، لـولا أصابـع يدهـا النحيلـة التـي تتسـابق علـى صفحـة بضـع وريقـات مبعثـرة علـى منضدتهـا، تتشـبث بقلمهـا كأنـه طـوق النجـاة مـن غـرق محقـق، وكأن مـا تخطـه مـن حـروف تثقـل روحهـا؛ فتسـعى جاهـدةً للتحـرر منهـا علهـا تنجـو..

❖❖❖

أفـاق مـن شـروده علـى يـد تربـت علـى كتفـه بهـدوء، نظـر للخلـف مشـدوهاً، وكأن هـذه اليـد انتزعتـه مـن بئـر عميقـة مـن الأفـكار، كادت روحـه تزهـق فيهـا غرقـاً، أوحـى إليـه الطبيـب أن يتبعـه، فسـار خلفـه إلـى مكتبـه، تتسـابق فـي رأسـه آلاف الأسـئلة..

تسـير مسـرعةً بيـن أروقـة كليتهـا، تحـاول اللحـاق بمحاضرتهـا، فـالآن موعـد المحاضـرة النهائيـة التـي سـيحدد بهـا الدكتـور أهـم جزئيـات المنهـج، كمـا توعدهـم بإثبـات الحضـور والغيـاب لـ (التيـرم) كلـه علـى أثرهـا.

تلاحـظ بعـض الهـرج مـن حولهـا، بعـض التجمعـات الكبيـرة نسـبياً مـن الطلبـة علـى غيـر العـادة، فكـرت للحظـات أن تسـتعلم عـن سـببها، لكـن لا وقـت، إنـه مسـتقبلها علـى المَحـك هنـا، حدثـت نفسـها: سـامحه اللّٰه سـائق التاكسـي الـذي كان سـبباً فـي تأخـري اليـوم..

تعـدو مسـرعةً تسـابق أفكارهـا؛ لتصعـد السـلم المـؤدي للطابـق الثانـي حيـث قاعـة المحاضـرات، لتفاجـأ ببعـض الطلبـة يتجمعـون

في منتصف الدرج حول شاب يخطب فيهم، لفت انتباهها طوله الفارع، صوته الجهوري الناطق بعربية سليمة، يتناقش مع الشباب عن أحلامهم وطموحاتهم، كيف يستثمرون وجودهم في الجامعة ليصقلوا مواهبهم، ويشاركوا في العمل المجتمعي، كيف تحتاج البلاد إلى جهودهم في كافة المجالات، لترقى وتسمو وتتخطى ما يعرقل تقدمها من عقبات.

كلمات تزرع حس الوطنية بقلوب كأرض خصبة، تشتاق لبذور صالحة، ترويها أفكار مستنيرة، لتنمو أشجارها باسقة تحمي الأوطان من كل ريح غاشمة..

أحست حبيبة بفيض من فخر ورغبة في المشاركة في كل حدث من شأنه أن يعود بالخير على بلدها، رأت الفخر في عيون الشباب المتحمس، والعزيمة تطل من بين كلماتهم كنور يأذن بميلاد فجر جديد، لتفيق من شرودها على حضور أمن الجامعة مسرعاً لفض هذا الجمع المخالف للقوانين، وصعودهم الدرج، محاولين اصطحاب الشاب دون خلق جو من الهرج وسط الشباب المتجمهرين..

تتذكر فجأة محاضرتها التي تأخرت عليها، ألقت نظرة على باب المدرج الواضح للعيان أنه قد أُغلق، لتصيح بصوت عالٍ نسبياً:

- تباً لك، أهذا وقت مناسب للخطب والشعارات؟! لقد ضاع حلمي بالامتياز ككل عام؛ بسبب هذا الشاب الأخرق وخطبه..

تسمع ضحكة تتردد من خلفها، تلتفت لتفاجأ به يقف مع بعض أفراد الأمن على مقربة منها، تمكنه من سماع كلماتها الحانقة عليه، رسمت الجدية على وجهها، وصوبت له نظرة

قاتلة، لتتحول للتعجب حين تجمدت الضحكات على شفتيه، نظر لها بعيون تنطق بالذهول قائلاً بصوت عال سمعه كل المحيطين:

- ما هذا؟! أَسَطوتِ على كل الفستق في العالم، لتخبئيه داخل أسوار عينيك يا (فستقية العينين)؟!

ألجمتها الصدمة، مع نظرات المحيطين المصوبة نحوها؛ تستطلع من هي المقصودة بكلماته، فما كان منها إلا أن رددت كلمتها الحانقة، "تباً لك!" وهي تهرول مبتعدة عنه تود الهروب والاختباء في أقصى الأرض..

دلف بصحبه الطبيب إلى مكتبه الأنيق، كل ما حوله يوحي بالثراء، لكن ما جدوى كل كنوز العالم لمن يصبح هذا المكان مأواه؟!

دعاه الطبيب للجلوس، نظر له متسائلاً عن رأيه فيما رأى، أطرق "ماهر" مفكراً، هل من رآها للتو هي فعلاً حبيبة، هذا الشبح المنزوي في سجن مخملي مستسلماً للضياع، وكأنها اختارته ملاذاً من قدر تفنن في إخماد براكين الحيوية وحب الحياة التي كانت تسكنها؟ أين هذه الفراشة النضرة الزاهية الألوان، حتى لتخلب لب الزهاد المتبتلين في أقاصي الأرض؟!

أين الربيع الساكن أحداقها؟!

أين غَرُبت خيوط الشمس التي تسكن شعرها، لتبث الدفء من حولها حين تفترش كتفيها؟!

أين صفاء السماء في صبح ربيعي، مكلل بحبات الندى الذي كان يشرق على صفحة وجهها النضرة؟!

تتسابق الأفكار في عقله، وعيناه معلقتان بوجه الطبيب، يسمع ولا يعِي ما يقول، يحمله عقله لذكرياته معها، التي لم ولن ينساها أبداً.

لمعت في ذهنه فكرة مؤلمة، فأسرع مقاطعاً الطبيب المسترسل في حديثه، غير مدرك لما يجول بخاطره، قائلاً:

- أريد أن أقرأ كل ما خطته يداها، أريد كل هذه الأوراق المبعثرة من حولها، أريد أن أدخل من خلالها إلى عقلها، أحاول انتشالها من هذه الهوة السحيقة التي سقطت بها..

نظر له الطبيب نظرة معترضة، ورد عليه قائلاً:

- أتدرك ما تطلبه، تريدني بكل سهولة أن أخون شرف مهنتي؟ أن أفشي أسرار مريضة غير مدركة لما حولها؟ ألم تسمع يوماً عن ميثاق الشرف الذي يلتزم به كل طبيب تجاه مرضاه؟!

قاطعه ماهر:

- أخبرتني أن حبيبة لم تفارق غرفتها تلك منذ سنتين، منذ جاء بها أهل زوجها، ولم يتواصل معها أحد منهم بعدها، واقتصرت علاقتهم بها على دفع تكاليف المصحة، كما أخبرتني أن السبب وراء معرفتك بشخصي هو قراءتك لهذه الأوراق، التي تردد بها اسمي عشرات المرات، تتفاوت بين ذكريات مضت وحديث توجهه لي من بين كل من تعرف..

رد الطبيب: نعم ولكن...

قاطعه ماهر:

- أظن أن أقل حقوق هذه المسكينة أن نحاول مساعدتها لتنجو من هذا الشقاء، ولو لم أستطع أنا فعلها، فلن يفعلها مخلوق غيري على وجه البسيطة..

صمت الطبيب مفكراً، فعلى الرغم من كل شيء، فهو يعلم صدق كلماته، ولهذا السبب تحديداً، قد أمضى الستة أشهر الأخيرة باحثاً عن هذا الماهر الذي أصبح الوحيد الذي يسكن عالمها من الأحياء..

تعتصر القلم بأصابعها، وتطعن به وريقاتها، وكأنه نصل مسموم تغرسه في قلب عدو يتربص بها.. ارتفعت صرخاتها بهستيريا مجنونة، أسرع على أثرها طاقم مكون من ثلاث ممرضات يعلمن ما يحدث جيداً، فها هي حبيبة قد بدأت نوبة جديدة من الهلع، لن تنتهي حتى يتمكن من السيطرة على جسدها المسكون بشياطين الذكريات، وحقنها بمهدئ قوي تنام على أثره، ربما ليومٍ كامل دون أن تحاول الحراك، كمن تستسلم مناديةً شبح الموتِ المخيم في قلبها؛ علّه يأتيها بالخلاص.. طرقات على باب مكتب الطبيب، يعلو صوته قليلاً مطالباً الطارق بالدخول، تقترب منه ممرضة؛ لتُسِر إليه ببعض كلمات عن قرب، يقف متأهباً، ينظر لماهر مفكَراً للحظة، يعتذر منه ليغيب بضع دقائق لمتابعة حالة مُلحة، ويخبره بأنه سيرسل إليه بفنجان من القهوة المخصوصة؛ ليتناوله أثناء انتظاره..

يجيبه ماهر بالموافقة، فهو لن يبرح هذا المكان حتى يصل

إلى حل يساعد به حبيبته..

في غرفتها، تتلوى بين أيدي الممرضات المحاربات من أجل السيطرة على نوبة هياجها، يدخل الطبيب مسرعاً ومن خلفه ممرضة أخرى تحمل صندوق أدوية صغير يحوي حقناً مهدئة، يقترب الطبيب محاولاً لفت انتباه حبيبة، لكنها لا تستجيب، تتعاون الممرضات حتى يتمكن من حقنها بمهدئ سريع المفعول، متسائلات فيما بينهن، كيف لهذه النسمة الوديعة الرقيقة أن تتحول في لحظات لمثل هذا الإعصار المدمر؟! أي شياطين تسكن هذا العقل لتهبها كل هذه القوة؟! دقائق معدودات مرت، تكومت بعدها في سريرها متخذةً وضع الجنين، تتشبث بنفسها، تحتمي بها من ضياع يحتلها..

ينظر الطبيب إلى أرض الغرفة التي تناثرت فوقها الأوراق، يطلب من إحدى الممرضات أن تقوم بجمعها وإرسالها إلى مكتبه في التو..

هزات سريعة تبدد سكون جفون أُغلقت عنوة، لكن لا مهدئ يقتل هذا الكائن الذي يسكن أحلك مغارات روحها، شيطان تفنن في سلبها الحياة، أحداث تتسابق في مخيلتها، تبدد سلام روحها، تصطحبها حتى في أحلامها.

صوت موسيقى تصم الآذان، يتردد بين جنبات أكبر مدرج في الجامعة بأسرها، إنها قاعة الحفلات الكبرى، حيث يقام الحفل السنوي لنهاية العام الدراسي، والذي يسبق الدخول إلى دوامة الامتحانات بأيام قليلة، الآلاف من الشباب والفتيات في أبهى

زينة، حوريات من الجنة برفقة فرسان من العصور الوسطى..

هنــاك علــى المســرح فــي صــدر القاعــة، يقــف أفــراد فرقــة الجامعــة الموســيقية خلــف آلاتهــم المختلفــة، متفننيــن فــي عــزف مقطوعــة موســيقية رائعــة، يتعالــى التصفيــق الحــاد، وبعــض الهتافــات مــن الشــباب مطالبيــن زميلهــم الــذي يقــف علــى المســرح مغنيــاً، أن يعيــد (كوبليــه) قــد غنــاه منــذ قليــل مــن إحــدى أغنيــات عبــد الحليــم حافــظ الرائعــة، فيعيــده منتشــياً بنجاحــه..

(وميل وحدف منديله

كاتب على طرفه آجي له

وأمانة يا دنيا أمانة

تاخدينا للفرحة أمانة

وتخلي الحزن بعيد عنا

وتقولي للحب استنى

وتقول للفرح استنى .. استنى)

لتتعالــى موجــات أخــرى أشــد مــن التصفيق لهــذا المطــرب الموهوب، الــذي بعــث الحيــاة في كلمــات الأغنيــة الشــهيرة بأدائــه الرائع..

تقــف حبيبــة إلــى جانــب زميلاتهــا فــي القســم، تتمايــل برقــة وســعادة علــى وقــع كلمــات الأغنيــة وألحانهــا، ترتســم علــى وجههــا ابتســامة كألــف شــمس مشــرقة وســط ظــلام الليــل، ليقشــعر بدنهــا حيــن ينطــق بالقــرب منهــا صــوت تعرفــه جيــداً، قائــلاً:

- لأول مـرة أرى شـروق الشـمس فـي وسـط الليـل يـا (فسـتقية العينيـن)..

تلتفـت مصدومـة مـن جرأتـه، تـراه يقـف شـامخاً فـي أبهـى حُلـة، تتسـمر عيناهـا عليـه، يهدِر قلبهـا معلنـاً ضيـاع إحـدى دقاتـه بغتـة، تـردد دون وعـي منهـا بصـوت ضـاع وسـط الهتـاف:

- تباً لك.. أهو أنت مرة أخرى؟!

ليـرد عليهـا بضحكتـه المميـزة، التـي فـاق جمالهـا كل الأنغـام التـي سـمعتها يومـاً، وليبـدأ "كيوبيـد" العابـث بتوجيـه سـهامه الفتاكـة مـن حولهمـا، ليـردي قلبيهما عشـقاً..

لـم يمـر بخيـال أي منهمـا فـي هـذه اللحظـات، أن هنـاك مـن يقـف متربصـاً، يرميهمـا بنظـرات تـكاد تفتـك بهمـا، يتميـز مـن الغيـظ، تتعالـى صرخـات عقلـه المريـض ليصـم أذنيـه عـن كل مَـن حولـه مـن زملائـه، طلابـه والموسـيقى، فـلا يسـمع سـوى صـراخ شـيطانه، متسـائلاً:

- من هذا؟! وكيف يجرؤ على الاقتراب من حبيبة؟!

إنهـا ملكـه وحـده، ومـن يجـرؤ علـى الاقتـراب منهـا، سـيقتله بيديه العاريتين.

صـوت أبـواق سـيارة يتعالـى أمـام بوابـة كليـة الآداب؛ ليلفـت نظـر أفـراد الأمـن لفتحهـا، لتدلـف مـن بينهـا سـيارة جيـب شـيروكي سـوداء اللـون، تحمـل أرقامـاً مميـزة، تخبـرك أن مالكهـا تعـود أصولـه لعروس البحـر المتوسـط، ينخفـض زجاجهـا الممـوه، ليطـل مـن خلفـه الدكتور "وليـد"، يهـرع إليـه فـرد الأمـن ملبيـاً نـداءه العصبـي، يقـف أمامـه ليتلقـى نصيبـه مـن التعنيـف المعتـاد، لإهمالـه فـي اسـتقبال عظمتـه

على بوابة الكلية، حتى قبل أن يقترب منها..

تتسارع الأفكار في رأس الشاب المغلوب على أمره، يتمنى لو يمد يديه فيقتلع حنجرة هذا المغرور، ليرحم العالم من سماع صوته الشاذ الذي يلوث الأسماع، وكلماته اللاذعة التي لا يسلم منها كبير كان أو صغير.. أفاق على صراخ هذا الوليد قائلاً:

- ما فيش فايدة فيكم يا بقر.. ساعة واقف قدام البوابة علشان حد فيكم يتحرك ويفتحها، إنتم لازم تتجازوا النهارده على تقصيركم..

نظر إليه فرد الأمن، يوشك أن يرد الإهانة الصاع صاعين، لولا زميله الأكبر سناً الذي أسرع ليجذبه، ويتوجه هو بالحديث إلى هذا الطاووس الثائر قائلاً:

-آسفين يا وليد بيه، أوعدك مش هتتكرر تاني.

ينظر إليه وليد حانقاً، متمتماً ببعض السباب، ليلتفت إلى مقود سيارته ويكمل مسيره إلى حرم الكلية، ليصُفها في مكانها، يُفتح بابها ليهبط، شاب وسيم في أوائل الثلاثينيات من عمره، توحي ملابسه بالثراء، لكنها تفتقر إلى الرقي، يشوه بدلته الرمادية وقميصه الأسود المفتوحة أزراره العلوية، بسلسلة ذهبية ضخمة تتدلى من رقبته، نظارته الشمسية الباهظة الثمن المعلقة أيضاً

بسلسلة ذهبية أخرى، وهذه العلكة التي يمضغها، لا تفارق فمه أبداً، في صورة استفزازية مقيتة..

يمشي مختالاً في أرجاء الكلية، من خلفه عامل القسم يحمل شنطة جلدية تضم متعلقاته، ينظر شذراً للطلبة المنتشرين هنا وهناك، تسرع نحوه بعض الفتيات محاولات التقرب منه؛ طمعاً

في بعض الدرجات التي لا يستحققنها، تتفرقن مرغمات حين تأتي "مي"، هذه الفتاة التي يبدو من ملابسها أنها أخطأت؛ وبدلاً من الذهاب إلى زفاف إحدى الصديقات جاءت إلى الجامعة، شعرها القصير المصبوغ بالأشقر، العدسات غريبة اللون التي تنطق صارخة بين جفنيها، ال (جيب) القصيرة جداً، الكعب العالي الذي تتمايل بغنج وهي ترتديه، وأخيراً بلوزتها التي تكشف أكثر مما تستر، تقترب منه في هدوء الواثق، ينظر إليها بطرف عينيه، يسر إليها أن اتبعيني إلى مكتبي بعد خمس دقائق، ولا تتأخري..

لترد على قوله بضحكة مجلجلة، تجعلهم محط أنظار الجميع، ومن بينهم حبيبة، التي تمتمت مستعيذة بالله من شياطين الإنس، وهي ترمقهما بنظرة لو كانت سهماً لقتلتهما معاً..

يدخل الطبيب إلى مكتبه حاملاً بين يديه ملفاً ضخماً من الأوراق، يضعه على مكتبه، ينظر إلى ماهر الذي حطت نظراته على الأوراق متلهفاً لقراءتها، قال له الطبيب بجدية:

-أستاذ ماهر، لولا أني قرأت هذه الأوراق وأعلم حجم المعاناة التي مرت بها حبيبة، ما فكرت للحظة أن أطلعك عليها، ولسبب آخر، أن حالة حبيبة تتدهور مع مرور الوقت، وكلي أمل أن يكون حضورك هو طوق النجاة لها..

رد عليه ماهر بتمتمات متلعثمة، مد يديه؛ ليحمل الملف الذي يضم قطرات من نزف روح حبيبته.

أخبره الطبيب أنه خصص له غرفة قريبة من مكتبه، ليستريح فيها، ويبدأ بقراءة حكايتها المؤلمة، فهو لن يسمح بخروج هذه الأوراق خارج جدران المصحة أبداً.. هز ماهر رأسه موافقاً، وخرج برفقة إحدى الممرضات إلى حيث ستبدأ معاناته..

غرفة تشبه الغرفة التي تسكنها حبيبة، لم يلتفت لتفاصيلها، اتجه مباشرة نحو المكتب في ركنها القصي، وضع الملف، وجلس على الكرسي، ونظر إلى الممرضة طالباً منها فنجاناً من القهوة السادة إذا أمكنها ذلك، فتجيبه أنها ستحضره إليه بعد دقائق بإذن الله..

فض الظرف عن الملف، أخرج بعض الأوراق، أخذ إليها، ويتحسس موضع أناملها بيديه، يستعيد ذكرى يوم أن كان على وشك الزواج بها، لتكون حلاله، زوجته التي ما تمنى من الدنيا سواها، حتى استحالت الحياة إلى سلسلة من الكوارث، لا يلبث أن تنتهي واحدة حتى تبدأ التي تليها..

نفض الأفكار عن رأسه، ليبدأ في قراءة أولى الصفحات المنقوشة بخط مهزوز، كما لو كانت كاتبتها تجاهد لتتمكن من رسمها، أشفق على حالها قبل أن تطير عيونه على السطور، وترتسم على وجهه علامات الألم مع كل كلمة يقرؤها..

تتذكر حبيبه وقفتها مستندةً إلى كتف إحدى صديقاتها، تنهمر دموعها على خديها، تنطق بآهات ملتاعة، لا تصدق الدوامة التي سقطت بها، شهر واحد فقط تحولت فيه حياتها من السعادة إلى قمة الشقاء، حين أفاقت من نومها على صوت والديها يعلو بطريقة غريبة لم تحدث من قبل، كلمات غاضبة من أمها، توجهها لزوجها متسائلة: كيف استطعت أن تفعل هذا؟! لسنوات عده تغاضيت عن خياناتك التي فاحت رائحتها القذرة، كي تنشأ ابنتي في بيت مستقر، لم يعد يهمني ما يصل مسامعي من أخبار مغامراتك مع فتيات، بالكاد يكبرن ابنتك ببضع سنوات، لم تعد تعنيني في شيء، لكن أن يصل بك الحال أن تنفق أموالي وميراثي الذي استأمنتك عليه لتشتري ود عاهراتك الصغيرات، فلا وألف

لا، لـن أسـكت، إنهـا أموالـي وأمـوال ابنتـي مـن بعـدي، لا حـق لـك فـي تبديدهـا علـى ملذاتـك...

لتسـمع حبيبـة صفعـة مدويـة تهبـط علـى وجـه أمهـا لتخرسـها، وصـوت أبيهـا يقـول متبجحـاً:

لا مـال لكـم عنـدي، أنـا حـر فيمـا أفعـل، كفانـي سـنوات قضيتهـا معـكِ دون أبنـاء، لتنجـب أرضـك البـور فتـاة وحيـدة بعـد خمسـة عشـر عامـاً تعيسـة، هـذه الأمـوال حـق تحملـي لـك كل هـذه السـنوات، وقـد آن الأوان أن أسـتمتع بحياتـي كمـا يحلـو لـي، ولتذهبـي إلـى الجحيـم أيتهـا العجـوز الشـمطاء، بتجاعيـد وجهـك، وأعـوام عمـرك التـي تعـدت الخمسـين، فأنـا لا تليـق بـي سـوى صبيـة تحملنـي إلـى الجنـة بجمالهـا...

لتصـرخ زوجتـه، قبـل أن تسـقط علـى الأرض مغشـياً عليهـا، تأتـي حبيبـة مهرولـةً مـن غرفتهـا، فتجـد أمهـا فاقـدةً للوعـي علـى أرض الغرفـة.

شـهر مـر عليهـا بثقـل الجبـال، نُقلـت أمهـا إلـى المستشـفى، ليعلـن الطبيـب إصابتهـا بجلطـة مضاعفـة بالمـخ، دخلـت معهـا فـي غيبوبـة .. تمضـي السـاعات والأيـام وحبيبـة تعيـش علـى أمـل أن تفيـق أمهـا، لتلـوذ بهـا مـن غربتهـا وألمهـا، فمـن لهـا سـواها، لـم تسـتوعب لـلآن مـا سـمعت مـن والدهـا، ولـن تسـامحه أبـداً علـى أنـه السـبب فيمـا حـدث لأمهـا الغاليـة، حتـى أنـه لـم يعـد يحضـر إلـى المستشـفى إلا نـادراً ليتـرك بعـض النقـود لهـا و للمستشـفى ويرحـل، وكأنمـا أسـعده مـا حـدث، لـم يؤنبـه ضميـره ولـو للحظـات علـى مـا قـدم..

تشـق صدرهـا ذكـرى نومهـا علـى كرسـي الانتظـار أمـام غرفـة العنايـة الفائقـة التـي ترقـد بهـا أمهـا، تسـتفيق علـى صـوت أقـدام

تتسارع، أصوات تأتيها وكأنها في كابوس مرير، طبيب يدخل مسرعاً إلى غرفة العناية، يتبعه آخر وبعض الممرضات، تحاول الدخول من خلفهم، لتطمئن على والدتها، فيمنعونها، لتراهم من بعيد وجهاز الصدمات الكهربية في يد أحدهم، يصعق به جسد أمها المسجى عده مرات متتالية، وصوت الأزيز المقيت الخارج من جهاز الإفاقة، لا يريد أن يكف عن صراخه معلناً النهاية التي لا فرار منها، وصوت لا تعلم مصدره وكأنما يخرج من بئر سحيق، يعلن ساعة وتاريخ الوفاة، لتسقط على الأرض فاقدةً الوعي.

تتذكر مرور الساعات ثقيلة مريرة عليها في وحدتها، مر شهر واحد على وفاة والدتها، لتجد والدها يدخل إليها وبيده فتاة مريبة الشكل، تكبرها بأعوام قليلة، ملابسها تكشف أكثر مما تستر، ليقدمها لها على أنها زوجته التي ستعيش معهما في هذا المنزل، والتي لابد أن تحترمها، وتعاملها بما يليق بزوجة أبيها.

تنتقل حبيبة ببصرها بينه وبين الفتاة، لترى نظرات السخرية والعبث والشر تنطق من عينيها، ونظرات الخضوع والمهانة المصحوبة بوله مقيت ترتسم على وجه أبيها.

وكما توقعت، استحالت الحياة جحيماً مستعراً، لا يكاد يمر عليها يوم في هدوء، فهذه المسماة بزوجة أبيها تتعمد أن تنغص عليها الحياة، فتختلق المشاكل لأتفه الأسباب، تتدخل فيما يعنيها وما لا يعنيها، حتى خروجها لكليتها، التي بدأت منذ أسابيع قليلة وكانت المهرب الوحيد الذي تلوذ به بعيداً عن صرخات هذه المجنونة التي لا تتوقف، فتارة تطالبه بإقامة الحفلات الأسبوعية في المنزل لأهلها وأصدقائها، لتحيله للفوضى، وتارة تسمع صراخها طالبةً المزيد من المال والمجوهرات وإلا تهجره، فيأتيها بما ترغب صاغراً، تتلذذ بذلك بشبابها وفتنتها

الصارخـة وهـو العجـوز العاجـز، الـذي لابـد أن يعوضهـا عـن شـبابها الـذي تهـدره بالحيـاة معـه، فيرضـخ ذليـلاً.

سـنوات ثـلاث مـرت منـذ وفـاة والدتهـا، والحـال فـي بيـت أبيهـا من سـيء إلـى أسـوأ، حتـى جـاء اليـوم الـذي عـادت فيـه الحيـاة لتبتسـم لهـا، حيـن سـاقت لهـا الأقـدار هـذا الصحفـي الثـوري المجنـون الـذي سـرق قلبهـا بغتـه، علـى درجـات سـلم الكليـة.

أفـاق ماهـر علـى نـداء الممرضـة التـي جاءتـه بالقهـوة، وتعجبـت مـن عينـه المليئـة بالدمـوع، المثبتـة علـى ورقـة أمامـه، تتسـابق علـى حروفهـا، نادتـه لتطمئـن عليـه، نظـر إليهـا للحظـات شـارداً، أخـذ فنجـان القهـوة منهـا شـاكراً، ثـم عـاد بلهفـة ليقلـب صفحـة أخـرى مـن حيـاة حبيبتـه المؤلمـة، يقـرأ كلماتهـا، فتُضحكـه تـارة وتبكيـه مـرات..

(يـا لهـذا الماهـر الـذي خطـف قلبـي! لا أعلـم سـر تعلقـي بـه، فلـم يكـن أول مـن أثنـى علـى جمالـي، أو آخـر مـن حـاول التقـرب منـي، فقـد اعتـدت أن أكـون محـط الأنظـار والأطمـاع، فالجميـع يعتبروننـي

صفقـة رابحـة، خاصـة مـن يعلـم بثـروة أبـي وشـركاته، فلـم يصـل لعلمهـم بعـد مـا آلـت إليـه حالـه مـن إفـلاس وشـيك بسـبب زوجتـه العنيـدة، أحـس أحيانـاً بالشـماتة فيـه، فهـا هـو يتجـرع نفـس الـكأس التـي سـقاها أمـي يومـاً، وكانـت سـبباً فـي موتهـا قهـراً، إنـه الله العدل، فـكل سـاقٍ سيُسـقى بمـا سـقى.

أغمـض عيونـي وأسـترجع كلماتـه لـي، وإصـراره علـى مناداتـي "يـا (فسـتقية العينيـن)"، لـم ينادِنـي بهـا أحـد مـن قبـل، ولا أرغـب فـي أن أسـمعها مـن سـواه، هـذا المجنـون الـذي سـبى قلبـي، واحتـل عقلـي بـكل رضـاي، وسـامته الرجوليـة لا تشـبه أحـداً غيـره، كلماتـه، صـوت

ضحكتـه الممتعـة، وكأنهـا موسـيقى تُعـزف علـى أوتـار قلبـي، فكـرت قليـلاً أن أهـرب مـن العشـق، أخـاف أن أحبـه كمـا أحبـت أمـي أبـي، فقتلهـا قهـراً، لكـن لا.. شـتان مـا بيـن الاثنيـن، فماهـر يختلـف كليـةً عنــه، إنــه صاحــب مبــدأ، يحــب الخيــر للجميــع، يعشــق تــراب هــذا البلـد، ويدافـع عنـه بقلبـه وعقلـه، حبيبـي الصحفـي الخطيـب المفوه، لقـد تخـرج مـن الجامعـة منـذ عـام مضـى، وهـا أنـا أيضـاً علـى وشـك التخـرج بعـد شـهور قليـلات، أنتظـر مـرور هـذه الأيـام بفـارغ الصبـر، فقـد اتفقنـا علـى أن يتقـدم لخطبتـي بمجـرد أن أنهـي امتحاناتـي، يـا اللّه.. كـم أشـتاق أن أكمـل مـا تبقـى مـن الحيـاة بقربـه!!)

تسـاقطت دمـوع ماهـر عندمـا قـرأ عبـارات الحـب التـي خطتهـا حبيبتــه، متذكــرةً تفاصيــل لقائهمــا الأول.. ســرح بخيالــه ليشــاركها متعـة الحنيـن لأيـامٍ هـي كل رصيـده مـن السـعادة فـي الحيـاة، آه يـا

حبيبـة، لـو تعلميـن كـم اشـتقت إليـكِ، وكيـف فشـلت كل نسـاء الأرض فـي أن يخرجـوك مـن قلبـي ولـو للحظـات!! عـاد بعينيـه ليكمـل سـطوراً لـم يعلـم أنهـا بدايـة المأسـاة.

يسـير مختـالاً بيـن أروقـة الكليـة، يتأمـل أجسـاد الفتيـات بعيـون نهِمـة، وأفـكار تخطهـا أنامـل الشـيطان السـاكن عقلـه، تسـمر فـي مكانـه حيـن رآهـا تجلـس معـه فـي الاسـتراحة الخاصـة بكافيتريـا الكليـة، يتحـدث إليهـا بـود، فتبتسـم وكأن ألـف شـمس تسـطع علـى ملامحهـا مـن أجلـه، يتأملهـا، إنهـا الفتنـة متجسـدة، يُحـدث شـيطانه: لـم تسـتعص علـيّ فتـاة كمـا فعلـت هـذه المتعجرفـة، لابـد أن أكسـر غرورهـا حيـن أمتلكهـا، فهـذه التحفـة لابـد أن تنضـم لمقتنياتـي، شـاءت أم أبـت، صبـراً حبيبـة، فقـد اقتـرب الموعـد..

قالهـا وهـو يتجـه لمقـر الأمـن، موبخـاً إياهـم علـى السـماح لغيـر

الطلاب بالدخول إلى حرم الكلية، وأمرهم بالذهاب حيث يجلس ماهر ليخرجوه، تعجب رئيس الأمن من تصرفه، لكن لا مفر من تنفيذ إرادته، فقد أصبح بنفوذه وكيلاً للكلية رغم عدم استحقاقه، وكره جميع زملائه لشخصيته المقيتة.

توجه إلى مبنى شئون الطلاب، بعد أن اطمأن لخروج ماهر من الكلية بعد مجادلات مع الأمن، طلب من الموظف المختص الملف الخاص بحبيبة، فتحه ونقل بياناتها، عنوانها، رقم هاتف والدها، ومقر عمله، ليبدأ في تنفيذ مخططه للاستيلاء عليها، استغل شبكة معارفه الواسعة النفوذ، ليستعلم عن والدها، ليعلم نقاط ضعفه، وكيف يتحكم به ليحقق مآربه، وقد عرف السر الذي سيمكنه من تحقيق رغبته، فقد وصله أن والدها المتصابي، يمر بأزمة مالية طاحنة، يتردد صداها بين رجال الأعمال في بلدتهم التي لا يخفى فيها خبر أبداً..

زيارة خاطفة إلى مكتب والد حبيبة، حقق فيها وليد أطماعه، فقد سال لعابه عندما عرض عليه شراكة معه تخلصه من ديونه، بل وترجعه إلى السوق منافساً قوياً، ليخرس كل الألسنة التي تلوك سمعته بالسوء، قفزت نظرات السعادة من عيون العجوز الخاسر، لكنه توجس خيفةً عندما أخبره وليد عن شرط لابد أن ينفذه لتتم هذه الصفقة، لكنه تنفس الصعداء عندما علم أن

زواجه من حبيبة هو ثمن الصفقة المنشود، فتهلل وجهه، ووافق بلا أدنى تفكير، ولم يخطر بباله أن حبيبة قد ترفضه، أو أنها تحب غيره، فلا فارق، المهم مصلحته فقط. خرج وليد منتصراً من مكتب والد حبيبة، ولم يتبق أمامه سوى بعض الخطط التي سينفذها أصدقاؤه، ليطيح بماهر من طريقه، بلا أدنى إحساس بالذنب.

أصيبت حبيبة بالدهشة عندما دخلت إلى منزلها لتجد والدها وزوجته بانتظارها، وما زاد من دهشتها أن قاما لاستقبالها مرحبين مبتهجين، فتوجست خيفة من نواياهما، بل وتأكدت أن كارثة على وشك الحدوث..

بادرها والدها: حبيبتي الصغيرة، لك عندي أخبار سعيدة.

نظرت إليه قلقة مما سيقول، فأكمل غير مدرك لنظراتها:

- لقد جاءني من يخطبك، وقد وافقت، إنه ''عريس لقطة'' كما يقولون.

نظرت إليه مصدومة، وحاولت أن تقاطعه، لكنه أكمل:

- إنه وكيل الكلية التي تدرسين بها، شاب ممتاز تتمناه أي فتاة عاقلة، ثري، صاحب نفوذ، ويحبك بجنون حبيبتي، مبارك عليك، سنتمم الخطبة بعد انتهاء الامتحانات، ومن بعدها الزواج مباشرة، فقد أعد كل شيء مسبقاً.

قاطعته حبيبة ثائرةً:

- ومن قال إنني قد أوافق على الارتباط بهذا المخبول القذر، لقد ذاع صيت غزواته المحرمة مع الفتيات في الكلية، هذا اللزج المختال، لن أرضى به زوجاً ولو كان آخر الرجال على الأرض.

صفعة مدوية شتتت الحروف على شفتي حبيبة، مع صوت والدها الصارم المتوعد: لقد أعطيته وعداً مني وانتهى الأمر، أنت مجرد فتاة صغيرة لا تعلم صالحها، وأنا أبوك الذي يسعى لسعادتك. حاولت أن تنطق، لكنه أسكتها، اقترب منها ليحتويها

في أحضانه الباردة، مبارك عليك حبيبتي خطبتك لدكتور وليد.

تيبس جسدها بين ذراعيه، وفاضت عيونها قهراً من صلف هذا الأب القاسي، كيف يلقي بها كالجواري التي تُباع وتُشترى، لمجرد أن هذا الوليد ثري، غير آبه لمصيرها بين يديه! إنها ابنته الوحيدة، كيف وصلت به الحالٍ ليضحي بها ويقدمها قرباناً لهذا الشيطان؟!

تنظر إليه بعيون تصرخ بما تعجز عن النطق به من كلمات، ''لقد كنت الخنجر الذي طُعِنَت به أمي حتى الهلاك، وها قد جاء دوري لأقف في صف ضحاياك الطويل، لِم تتفنن في أن تكسرني؟! ألأنني أذكرك بأمي وما جنيت عليها؟!

لا يهم، فكل يوم يمر يؤكد لي أنه لم يسكن قلبك سوى نفسك فقط، لقد فقدتك والدي عند سقوط والدتي أمام عينيّ، حينها سقطت من قلب ونظر ابنتك الوحيدة، وللأبد.

يسير عائداً إلى منزله، تسرح أفكاره في حال حبيبته، يحس أنها تخفي عنه شيئاً ما، لم ترض البوح به رغم إصراره، لكن عيونها تشي بالكثير، يعرج على الصيدلية ليحضر الأدوية لأمه الغالية، فقلبها الطيب لم يعد على ما يرام، لقد أنهكته الحياة حتى أنّ من أثقالها. يحمل بعض الأشياء التي اشتراها للمنزل أيضاً، يسير مفكراً في أحد الشوارع المظلمة نسبياً، والتي يمر بها كل يوم عائداً إلى منزله، ليكسر سكون الليل صوت سيارة مسرعة، تقترب منه، تتوقف أمامه بمسافة قليلة، يهبط منها أربعة رجال مفتولو العضلات، يلتفون من حوله كالسوار حول المعصم، يحاول أن يتحدث إليهم، ليخبرهم أنه لا يملك من المال الآن ما يستدعي كل هذه الفوضى، لكن من الواضح أن الحديث هو

آخـر مـا يفكـرون بـه، وأن المـال ليـس هدفهـم علـى الإطـلاق، حـاول الدفـاع عــن نفســه، لكــن هزمــت كثرتهــم وقوتهــم شــجاعته وقوتــه، أبرحــوه ضربــاً حتــى تحطمــت معظــم عظــام جســده، وألقــوه إلــى جانـب الطريـق، يجاهـد ليتمسـك بالحيـاة، ليظلـم نورهـا فـي عينيـه وتخمـد حركتـه، لا يتبقـى مـن صلـه تربطـه بهـا سـوى بضعـة أنفـاس ضعيفــة تخــرج علــى اســتحياء..

فـي طريقـه لصـلاة الفجـر، يمـر هـذا الشـيخ الصالـح، مسـبحاً ومُحوقــلاً، تتناهــى لســمعه بعــض الآنّــات الضعيفــة، وكأن أحدهــم يجاهـد ليخرجهـا مـن فمـه فتأبـى، يتلفـت حولـه باحثـاً عـن مصدرهـا، يلعـن إضـاءة الشـارع الخافتـة التـي لا تسـاعده علـى الرؤيـة بوضـوح، وبعـد عنـاء اسـتطاع أن يهتـدي لمصدرهـا، يتعـرف علـى جـاره الطيـب ماهــر، يشــي مظهــره أنــه يجاهــد للحيــاة، يســرع الرجــل الصالــح فيتصـل بسـيارة الإسـعاف، ويتصـل أيضـاً بوالـد ماهـر، فهـو صديـق لـه، ليأتيـه مهـرولاً، ويصطحبـا ماهـر إلـى المشـفى وهـو بيـن الحيـاة والمــوت..

زفـاف بلـون الحسـرة، وحـده ينزفهـا قلبـي، فـي وقـت كنـت أحلـم فيـه بالأمـان والسـعادة، أنظـر إلـى فسـتاني الباهـظ الثمـن، لـمَ أحـس بـه

كأثمـال باليـة؟! أشـعر بـه يوشـم جسـدي بالعـار، كجاريـة فـي سـوق النخاسـة، بيعـت بثمـن بخـس، لسـيد تتمنـى المـوت عـن صحبتـه..

تداعـب خيالـي صـورة ماهـر يقتـرب منـي مرتديـاً أبهى حلة، يأسـر روحـي بوسـامته، تطـل مـن عيونـه فرحـة تغمرنـي فأشـاركه إياهـا، تمتـد يـدي رغمـاً عنـي لتلمسـه، تتبـدد صورتـه مـن أمامـي وكأنـه السـراب، أفيـق مـن خيالاتـي علـى صورتـه فـي المشـفى، ومـن أمـام

غرفـة العنايـة التـي تشـبه تلـك التـي فقـدت بهـا أمـي، تخليـت عـن كل أحلامـي، مـا ذنبـه أن يدفـع حياتـه ثمنـاً لحبـي؟ لـن أسـمح لأحـد أن يؤذيـه طالمـا تتـردد أنفـاس عشـقه بيـن دفتـي روحـي، حتـى ولـو كنـت أنـا الثمـن..

مؤامـرة رخيصـة حـاكَ تفاصيلهـا والـدي الـذي علـم بحبـي لماهـر، كانـت صاحبـة الفكـرة هـي زوجتـه الطامعـة فـي حيـاة أفضـل دائمـاً، وقـد نفذهـا وليـد بنفـوذه وشـخصيته القـذرة التـي لـن تتوانـى عـن فعـل أي شـيء ليحظـى بمـا يريـد، أي شـيء، وخاصـة عندمـا يتعلـق الأمـر بغريمـه الـذي ملـك قلبـي، فلـم يتركـوا لـي الخيـار، وكان الاتفـاق بعـد أن علمـتَ بمـا حـدث لـه علـى أيديهـم، ونواياهـم القـذرة فيمـا هـو أسـوأ، أن أمانـه مقابـل رضـاي وإتمـام هـذه الزيجـة الملعونـة، بشـرط ألا زواج حتـى يشـفى.

ذهبـت لزيارتـه مـرة بعدمـا تحسـنت أحوالـه، أخبرتـه بكلمـات مقتضبـة أننـي قـد خُطبـت لأسـتاذي، وأنـي لـن أسـتطيع معـاداة والـدي ولـو مـن أجلـه، تمنيـت لـه كل السـعادة، وخرجـت بغيـر أمـل فـي عـودة.

يسـترجع ماهـر هـذا اليـوم وغصـة تخنـق أنفاسـه، حيـن سـمع كلماتهـا وكأنـه كابـوس يعيشـه، نظراتـه لهـا غيـر مسـتوعبة لمـا تقـول، لكـن لمعـان هـذا الخاتـم بيدهـا، أنبـأه عـن صـدق مـا تحدثـت بـه، حـاول أن يـرد عليهـا، فأبـت كلماتـه أن تفـارق شـفتيه، لا رد فعـل سـوى ضربـات قلبـه الصاخبـة، ونزفـه المعـذب لحـب اغتيـل فـي مهـده، يتذكـر كيـف تشـبثت بهـا نظراتـه حتـى اختفـت خلـف بـاب الغرفـة خارجـةً للممـر، ليكـون آخـر لقـاء بينهمـا..

يخرج بعد أسابيع قليلة ويسعى بكل الطرق لإنجاز معاملات السفر للخارج، يتذكر كيف كان يحلم أن يصحبها معه، لكنها الأقدار حين تتفنن في تفتيت أحلامنا ونثرها لتصبح هشيماً تذروه الرياح..

يغلق الأوراق وقد صدمته حقيقة أنها ضحت بنفسها من أجله، لقد اشترت حياته، ودفعت حياتها هي ثمناً باهظاً في المقابل..

يطير بسيارته الفارهة على الطريق المؤدي إلى الساحل الشمالي، يترنح بين سيارات النقل الثقيل، كالمخمور بين جبال شاهقات، تصرخ زوجته وابنه خوفاً وهلعاً، يضحك بجنون مستمتعاً بخوفهما، تحدثه حبيبة أن تَعقل، ستودي بنا للهلاك بتصرفاتك الهوجاء، ينظر إليها في مرآة السيارة مستمتعاً، تتسارع الأفكار في عقله، ها هي حبيبة بعد ثماني سنوات من زواجهما ما زالت تنفر منه، تجلس بالكرسي الخلفي من السيارة هرباً، وما زال يزيد من عذابها بتصرفاته الغاضبة المنتقمة، كلما نظر إليها يرى وجه غريمه محفور على صفحة عينيها، لم ينس يوماً أنه أجبرها على الزواج منه، ولولا ضعفها أمام والد قاس متصاب، لم يكن لينالها يوماً، ينظر لابنه الوحيد، يتعلق بعنق أمه خائفاً، لقد شب نسخة منها، لا يشبهه في شيء، ملامحها الجميلة، هدوؤها المثير للسخط، حتى هاتان العينان الخضراوان، لم يرث منه سوى اسمه فقط.

تشد على ابنها بين ذراعيها، تحتضنه، تحميه من رعونة هذا الأب المجنون، الذي لم يفكر للحظة كيف يشعر ولده، وكيف ينتفض جسده الصغير رعباً، ابن السبع سنوات، السبب الوحيد المتبقي لها للحياة من أجله، من أجله فقط تصبر على حياة بطعم العلقم، سقطت فيها بين براثن زوج نرجسي، وأسرة تشبهه

في جنونه وانعدام أخلاقه، وكأنه ثمرة فاسدة نبتت من فرع شجرة آثمة، لا تثمر سوى الحنظل، ولا ظِلّ لها يُنتفع به.

تقاوم رغبتها في الصراخ خوفاً، فهي على يقين من أنه يستمتع بهلعها، لكنها تخشى على ابنها، تغلق عينيها وتدعو الله أن يحفظه من كل سوء، تشعر بتسارع دقات قلبه تحت يدها، تنهر زوجها وتطلب منه الكف عن عبثه، تصيح غاضبةً:

-كف عن هذا العبث، فابنك يرتجف خوفاً.

يرد عليها متهكماً: فلتتركيه ليتعود، أريده أن يصبح رجلاً لا يهاب شيئاً، كفاه خوفاً واختباءً بين أحضان أمه كالفتيات.

نظرت حولها، فلم تجد مكاناً يصلح أن تغادر السيارة إليه، فالطريق محاط بالجبال، لا ترى أي مكان قريب تلجأ إليه..

تغمض عينيها، تسأل الله السلامة، تحس بارتجافات السيارة كلما انحرف بها متخطياً سيارة ما، ليطلق سائقها أبواقها صارخةً؛ اعتراضاً على هذا الجنون، تقذفه بنظرات قاتلة، تهمس من بين شفتيها المرتجفتين: لِم تتفنن في جعلي أشمئز منك دوماً؟! خلت يوماً أن تصرفاتك المريضة حكراً عليّ، لكن لم أتخيل للحظة أن تتعمد إرهاب ولدك الوحيد بهذه الطريقة الغبية.

نظر إليها بعيون تغيم بالحقد: ليس ولدي المقصود بالطبع، أتلذذ بوجع قلبك عليه، فلم يعد لك أحباب سواه، لأدمي قلبك عليه، سيشب ولدي رجلاً، يشبه أباه فقط، سأجعل منه نسخةً مني، ليستمر عذابك للأبد كلما رأيته أمامك.

ارتسمت على وجهه ابتسامة متشفية حين رأى ذهولها من كلماته، وتعالت ضحكاته مؤذنة ببداية نوبة من الجنون، اعتادت

عليها طوال السنوات الماضية، صرخ بها: فلتتركي الولد ليجلس على المقعد بمفرده، لم يعد رضيعاً لتجلسيه في أحضانك هكذا.

خشيت أن تجادله، فقد وصل لذروة الجنون، والقادم تعلمه جيداً، لن يتراجع عن مد يده لتطالها بالسوء أمام عيون ولدها المسكين، فربتت على خده تطمئنه وأجلسته على المقعد بجانبها، تحاول جاهدةً ربط حزام الأمان له، مع ترنح السيارة المتعمد من زوجها، نظرت إليه لتتقابل نظراتهما في المرآة، تشيح بوجهها عنه، لتتسع عيناها وهي ترى سيارة نقل ضخمة تأتي مسرعة نحوهم، تصرخ أبواقها محذرة هذا المجنون الذي يسير عكس الاتجاه، تتداخل الصرخات وتمتزج بين صوتها محذراً إياه، وصوته مردداً اللعنات عندما استوعب ما يحدث، وصوت الطفل المسكين الذي يجاهد ليعود لأحضان أمه التي ألقت بجسدها نحوه؛ لتحميه من الاصطدام الوشيك.

ظلمة أحاطت بها من كل جانب، أصوات عالية تتردد من حولها، ومضات من الحياة تمر بخيالها، أمها الغالية تقف هناك مبتسمة، أب عاق يقف باكياً نادماً، حبيب فارق وهو يظن أنها تخلت عنه، شيطان عاشت معه أحلك أيام حياتها، طفل برئ هو كل حياتها يقف مبتسماً إلى جانب أمها مُلوحاً لها بيده الصغيرة، قبل أن يرحل معها، ومضات سكنتها لشهور في غيبوبتها التي تلت الحادث، الذي لم ينج منه أحد سواها، لا زوج ولا ولد.

يجلس إلى جانبها في الحديقة الملحقة بالمصحة، ينتقي واحدة من زهور التيوليب الصفراء الرائعة من باقة تزين المنضدة أمامه، ليدسها بجانب أذن حبيبته "فستقية العينين"، التي تسرح بنظرها إلى السماء، وكأنها في عالم موازٍ، يتحدث إليها بحكاياه في غربته، وكم اشتاق إليها، وكيف عاد ليكمل

عمـره إلـى جانبهـا، لا يفارقهـا أبـداً، فتقابلـه بالصمـت وكأنهـا لـم تسـمع، يقـف أمامهـا علـى أحـد الكراسـي، متخـذاً وضعيـة مسـرحية، كالخطيـب علـى المنبـر، ليخطـب فيهـا كأول يـوم رأتـه علـى سـلالم الكليـة، ترمـش عيونهـا، تتسـاقط بعـض الدمعات الفـارة إلـى وجنتيها، لكنهـا تسـتمر فـي شـتاتها، يبتسـم ويهبـط إلـى جانبهـا، يحتضـن يديها بيـن يديـه، يدنـدن إلـى جانـب أذنهـا بصـوت رقيـق..

وميِّل وحدف منديله

كاتب على طرفه آجي له

وأمانة يا دنيا أمانة

الفهرس

«انتظار» ٦

«رُز قت حياة».. ١٠

« درة التاج ».. ١٨

«قدر».. ٢٣

«براءة» ٢٩

«آخر الزمان».. ٣٦

«اغتيال» ٤٨

«قربان» ٥٤

«في ظل الشجرة».. ٦١

«انتقام» ٦٥

«الوافد الجديد» ٧٠

«أضغاث آلام » ٧٤